رواية

فجر يعقوب

شامة على رقبة الطائر

المتوسط

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تحزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

©منشورات المتوسط

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المتوسط

ميلانو - إيطاليا

e-mail: info@almutawassit.org

www.almutawassit.org

تابعونا على

Almutawassitit@

منشورات المتوسط

Almutawassit

الفصل الأول: الأرملة السوداء

سيل المطر لم يتوقّف هذا الصباح. خيّل للرقيب رشيد عثمان أن السماء لن تتوقّف عن الهطل يومين، أو أكثر قبل أن تغلق أبوابها في وجهه، وتُغيّر من دفّة الصبح، وهو يتهجّى إضاءته الأولى في دفاتر الندى.

أخذ الرقيب المكلّف بـتـأمين حماية الموقع في القرية الجبلية البقاعية يدخّن آخر أنفاس سيجارته بشراهة واضحة حتى إنها كادت أن تحرق لسانه، فالجمرة الحمراء أضحت قريبة من شفتيه المقلوبتين إلى الداخل، ما اضطُرّه أن يتلقّفها بيده، ويلقي بها في الوحل تحت نعل حذائه الضخم. تمتم ببضع كلمات غاضبة. شتم الساعة التي جيء به فيها إلى هنا. لم يكن ينوي - إطلاقاً - أن يرخي لحيته من قبل، لكن الكسل الذي تعلّمه - مع مرور الوقت - شاء أن يفعل ذلك، ببساطة متناهية. لم يعد مهتماً لمظهره الخارجي، كما كان يفعل، في أوقات سابقة.

زفر الرقيب رشيد عثمان زفرة عميقة قبل أن يتلفّت يمنة؛ ليلحظ مرور العميد عاصم النمراوي آمر الموقع، بصحبة مرافقه الأسمر الطويل صهيب. وقف متأهّباً. قدّم له التحية، بانكسار ملحوظ. لم يكن يخطر في بال النمراوي أن الرقيب الشابّ المجنّد يخطّط لشيء في هذه الليلة. لم يكن بوسع أحد أن يدرك ما الذي يدور، بخلده، فكل شيء في هذه الثكنة المحتلّة من قِبل عناصر الكتيبة يسير آمناً ومطمئناً، ولولا بعض البرقيات التي تجيء من قيادة الكتيبة في بيروت، وهيئة الأركان في دمشق؛ لتردّد أن السكون الأبدي هو سيد الموقف.

كان الرقيب رشيد عثمان يعرف من أسرار القرية أشياء كثيرة. ارتبط بفتيات عديدة فيها، بالسر. وكان يواعدهنّ، كل واحدة على حدة. ومرة خانه لسانه حين نادى واحدة منهنّ باسم واحدة ثانية، فطردته على الفور. أدركت بغريزتها أن هذا الرقيب المجنّد يخونها في مكان آخر، فسكبت له ماء بارداً على "مؤخّرته"، وأومأت له أن يغادر مخدعها. تمنّع قليلاً، أو تظاهر بحنكته أنه يتمنّع، فتناولت بندقية الصيد القديمة المعلقة على الجدار، ولقّمتها بخرطوش، تناولته على عجل من خزانة عتيقة مركونة

على الجدار، ووضعتها في منتصف جبهته. تراجع قليلاً قبل أن يتناول قميصه العسكري، ويخرج، وهو يتمتم، ويشتمها، ببضع كلمات سوقية، ويلعن حظه الذي خانه.

كان شراب الفودكا المغشوش قد لعب برأسه قليلاً. قرّر أن يغيّر وجهة سيره في هذه الليلة المشؤومة، علّها تبدّل من حياته في هذه الثكنة، وتعيده سالماً إلى ديرته. صحيح أن أهل القرية المسيحية الوادعة كانوا قد استسلموا - بالتدريج - لوجود هؤلاء الأغراب بينهم، حتى إنهم استأنسوا مرورهم من بينهم، ولم يعد عناصر الثكنة يشعرون، بالحرج، وهم يتدافعون أمامهم، بصخب، ولكن فعلة الرقيب رشيد عثمان ستغيّر من هذه الحالة. ستغيّر من مجد الشريط الذي يرفعه عالياً في مواجهة الشمس، لعلّ مصائر مَن يقع تحت إمرته من مجنّدين أغرار تتبدل في ليلة واحدة، وتصبح بهية وناصعة بعد أن كلّت يمناه في قطع الهندباء البرية من جذورها، والصياح بأعلى صوته على عناصره: -اسمعوني، أيها الأوباش الصغار .. الفرنسيون يأكلونها في بلادهم من جذورها، أما نحن؛ فنأكلها هنا من وريقاتها. من الأعلى. فقط من الأعلى. سر إلى الأعلى، يا ولد.

شرب الرقيب المجند، وتجشأ في تلك الليلة مثل ثور، كما لم يتجشأ من قبل، وحين قرر أن يدفع الحساب، خلع رتبته المصنوعة من قماش رخيص، ووضعها على الطاولة، وتجشأ مرة أخرى قبل أن يكرع كأسه، ويمسح فمه، بكمّه. نظر إلى النادلة من وراء البار الذي يتكوم عليه نظرة غائمة، وحدّق فيها مطولاً. خُيّل إليه أنها ابتسمت له، وهي تجفّف كأساً زجاجياً، بمنديل قماشي غامق.

نظر إلى الرتبة العسكرية مطولاً، وأخذ يدقّق بالمنديل الذي تحمله النادلة. وجد تقارباً لونياً بينهما. لم يعجبه ذلك، وظن أن في الأمر إهانة. ابتسم ابتسامة لئيمة نافرة، لم تجد النادلة المسكينة تعريفاً لها. هزّت برأسها متسائلة وواجفة قليلاً، ثم واصلت تنظيف الكأس. توقّف الرقيب عثمان عن التحديق بقطعتي القماش. بدتا له، من زمن سحيق، فلم يكترث بهما أكثر من ثوان، بدت دهراً للنادلة، وشرع يرغي في موضوع آخر. عنّ له أن يدندن لحناً عاطفياً، من أغنية سوقية مبتذلة، يحفظ كلماتها، بترتيب فوضوي. منذ زمن، لم يغنّ. منذ زمن، لم يكتشف معنى أن يُجبل الانسان أكثر من ألف عام على نسمة الترجيع البدائي التي خُلق منها، واعتاشت منها أجيال كاملة.

كان الرقيب رشيد عثمان يدرك بغريزته أن الحياة - بحلوها ومرّها - سوف تمضي. الأغنيات المبتذلة التي دأب على حفظها في أوقات متقطعة وغير مدروسة، لا تؤسس لذلك الانشطار الذي يعيشه المرء على وقع الحروب والمذابح التي يمرّ بها. كان سهلاً جداً أن ينفر من الخسّة والنذالة التي تبديها تلك الكلمات حين يجيء عليها، ولكن المرآة التي يطلّ منها تبدو متشقّقة، وغير كافية؛ لتعكس الرغبات التي تربّى عليها. لم يتوان لحظة عن إبداء انزعاجه من حيض اللغة التي يتربّى عليها الجميع في هذه المؤسسة التي يطلق عليها في سرّه "مصفاة تكرير النفوس الحائرة". كان يخاف حتى حين يردّد هذه الكلمات أمام المرآة، فتتشقّق في كل مرة من الخوف. كان يخشى أن تشي به أمام رفقائه، فتقع الواقعة. صار يبتسم حين تجفّ الواقعة في النفوس، وفي الأوردة.

لم يكن الرعب الذي يراوغه بأصابعه في الكأس الأخيرة يجيء من تلقاء نفسه في ليلة ستغيّر كل شيء في القرية المسيحية الوادعة التي "يقيمون" معسكرهم فيها، فمن وراء زجاج الكأس اللمّاع، بدت له الشمعة التي تتراقص بضوئها شبيهة بسكّين حادّ سيخرقه في ظهره، ما إن يستدير؛ ليمضي. توقّف. شعر بلحظة حرونة، تشبه تدفّق الدم في عروقه حين يحرق لهب الشمعة صورتها التي دأبت على ترويعه بها. الصورة التي يخفيها في محفظة جلدية سوداء. لم يكن هناك كائن مثله يخشى الصورة التي يحبها. لم يكن يرغب في هذه اللحظة بإيقاظ الرياح التي هبّت على الوادي حتى يغرق بوساوس ثقيلة، فيكتب عن السكّين التي تخرق من الخلف. لم يحاول أن يتبرّأ من اللعنة كعادته، فأبقى على صورتها في مكانها الجلدي. وحدّق للمرة الأخيرة بالنادلة قبل أن يرمي حسابه على الطاولة، ويخرج.

بصق على عمود الكهرباء، وابتسم. لم يعرف سبباً لقيامه بذلك.
كان الشارع مقفراً إلا من بعض الظلال المتلاشية في العمق، وتراءى له أكثر استبداداً من الحال المزرية التي وصلوا إليها الشتاء الفائت بعد أن حاصرهم الثلج مدة أسبوع كامل في الثكنة، بقوا خلالها دون ماء، أو غذاء. لم يتحرك أحد لنجدتهم، وبدت كل الصور التي شاهدها الرقيب رشيد عثمان في الأفلام السينمائية عن طوّافات تقوم بإلقاء «الهدايا البطولية»؛ من أجل إنقاذهم مجرد أخيلة، لا وجود لها في الواقع. صحيح أن تلك الحادثة دفعته للتساؤل عن مغزى وجوده في هذه البقعة الجغرافية المعقّدة، ولكن ظهور كريستينا في حياته دفعه لتأجيل مثل هذا

السؤال، وصار يتمنى لو أن الحرب تطول حتى يبقى في القرية أطول مدة ممكنة.

كانت كريستينا كارثة مسيّجة بالأدعية والزعفران الناري. لم يكن يميّزها عن قريناتها سوى أنها ترتدي «تي شيرت» أسود في الصيف، ولا تنزعه أبداً طالما أن الشمس تنضّج التين والعنب، على مهل. أطلق عليها فتيان القرية لقب الأرملة السوداء، بالرغم من أنه لم يُعرف عنها أنها متزوجة، ولكن؛ شاع من حولها أنها متعددة العلاقات الغرامية، وأوقعت بشبّان كثر في شباكها. حار الرقيب عثمان، بلقبها، فبحث عنه متأنّياً في بعض الكتب القديمة التي عثروا يوماً عليها في القصر المحروق المحاذي للثكنة. كان يكفيه أن يضع اللقب في مربّع البحث الذي تدرّب عليه في العتمات المتتالية في هذه الحرب، ويقرأ غير مصدّق بعض الأوراق الصفراء. هاله أن تعريفها سيجعله ينسى الثكنة، والعميد النمراوي لفترة طويلة. قرأ متلهّفاً ما كُتب حول الأرملة السوداء عدة مرّات قبل أن يغلق الكتاب القديم، واعتبر ذلك في سرّه لحظة حرجة. شرد قليلاً قبل أن يهدي نفسه هاجساً عصابياً، أخذ يستولي على عقله بالتدريج، ويتشكل من أدخنة القلق الذي سيستبدّ به منذ هذه اللحظة، ويسبغ على حياته نعمة التفريط بالخلود حين يُهدّد الأب في عقر داره، ويمسك الأولاد بمطارق الفولاذ الرمزية لتهشيم رأسه قبل تشكّل كل دورة حياة جديدة.

- لا تستوي الأشياء حولنا مصادفة، ونحن في انتظار الحرب . حدّث نفسه مبتسماً. وأخذ يقرأ بصوت عال في درب مفض إلى مشورة الهلاك في الجحيم: "ذا بلاك ويدو سبايدر"* الأرملة السوداء هو أحد أنواع العناكب المشهورة بسمّها المؤثّر على الأعصاب. ويمكن للإناث أن تعيش حتى 5 سنوات، بينما تكون حياة الذكور أقصر، وكثيرا ما تفترس الأنثى الذكر بعد التزاوج".

خبط الرقيب رشيد عثمان على جبينه حين قرأ عن أنواع العناكب الأخرى التي تعيش وتتناسل في أميركا الشمالية وأفريقيا، ووقف مطوّلاً أمام الأرملة الحمراء، وأخذ يمظها، ويتنغم بها، وهو يبتعد راقصاً على ساق واحدة.

أراد الرقيب رشيد عثمان أن يقدّم درساً للمجنّدين تحت إمرته عن عنكبوت الأرملة السوداء. وقف، ومطّ لسانه: - عندما تفاجئك السكّين من الخلف، تمدّ لسانك إلى الأمام في محاولة لا تقاء أذيتها. لم يفهم أحد سواه

كيف يمكن أن يحدث ذلك. ولم يسأله أحد عن نظريته الجديدة حول الأقفال الآدمية التي تُدار في الخفاء من دون مفاتيح مرئية، ولكن غناءه الموحش كل ليلة أمام المرآة، بدأ ينسج شباكاً جديداً للقهر، لم يعهدها من قبل. صارت الحروف تكرّ أمامه بلغات مختلفة. وجد نفسه يوماً يسمّي كريستينا بالأرملة الحمراء، بلغة غريبة عليه، لم يتلفّظ بها من قبل، ويغنّي على ساق واحدة، وهو يحلق ذقنه. الأرملة السوداء كريستينا. تبدو عنواناً لحكاية بوليسية مشذّبة، يمكن قراءتها من البداية، أو الوسط، أو حتى من السطور الأخيرة. هذا أمر لم يعد يحيّر الرقيب في فترة تواجده في ثكنة حربية، يشعر بثقل أبديتها، وهو اعتاد في سيرته الفتية أن يقرأ كل شيء معكوساً، ويصل إلى النتيجة ذاتها التي يصل إليها مَن يقرأ الحكايات بذلك التدفّق الطبيعي الذي تربّى عليه البشر.

عرف الرقيب الشابّ كيف يصل إلى خاتمة الحكاية دون أن يجرّب سبر أعماق كريستينا. القراءة المعكوسة زوّدته بطريقة، يمكنه - من خلالها - فهم الكائنات التي تنبثق أمامه فجأة. زاد من حماسه أنه اخترع طريقة؛ ليحوم حولها، ويجعلها شغله الشاغل مع إدراكه المسبق لوظيفتها الغامضة التي تقوم على التخلّص من العشيق الجديد بعد كل مطارحة غرامية خاطفة.
من المؤكد أن غريزة كريستينا لم تتوقّف - أيضاً - عن مراقبة العسكري الخبيث رشيد عثمان حتى قبل أن يدور بينهما أيّ حديث خادع عن تقلّبات الطقس، ومرض الجدري، أو النبيذ الذي تخفيه جدتها في قبو سرّيّ، لا يعرفه أحد سواها في عائلة قرطباوي.

ابتسم الرقيب رشيد عثمان عندما مرّت كريستينا، بخاطره، وهي مزنرة بروث الخيول الرطب. أراد أن يراها على هذه الصورة متعمّداً، فقد يغيّر من مصيرها قبل أن ينغرس الدبّوس الحاد الذي يملكه في مخيلته تحت ظفر من أظافرها المستدقّة الطويلة في حرب من حروب الجسد المعلّبة. قام بحفر توطئة في الحيط الخيالي الذي يعلّق عليه أفلامه وآثامه بسكّين بندقيته، أو ما يطلق عليه المقاتلون المحترفون في الحروب التي تعبر الظلال البشرية المتبقّية على هذه الأرض كدفق متعثر في قناة محفورة بالأظافر: السلاح الأبيض. كان المجنّد الشاب قد قرأ عن مصنع في مدينة وزير آباد الباكستانية، عمره مئتا عام متخصّص بصناعة هذا السلاح، وفهم أن منتجاته تغزو الأسواق العالمية والأفلام الأميركية. حتى إن سلسلة أفلام رامبو الشهيرة استفادت كثيراً من هذه السكاكين المفزعة بأشكالها

وأطوالها، ولكنه لم يفهم سبباً واحداً؛ لتتفرد دولة تائهة، لم يُحدّد مصيرها بصناعة هذا السلاح، وظل يتساءل كيف يمكن أن يكون قد مضى على هذا المصنع قرنان، والبلاد التي كتب عليها أن تعيش على هدي الحرائق وروث الخيول الميتة تأسست قبل سبعة عقود تقريباً؟!

بدا له سؤالاً محيراً، لم يمنعه من أن يوغل أكثر..!!

مادمت أنتشلك من محنتك، يا كريستينا، فأنت لا يمكنك إلا أن ترقصي أمامي دون أن تقطعي رأسي بضربة واحدة. احملي هذه السكّين. مذي ذراعيك، وابتسمي. كانت الفودكا الروسية الممزوجة بعصير البندورة المعلّب قد غيّرت من اسمها في تلك الليلة، وما إن وضع فيها الرقيب المجند رشيد عثمان رشة فلفل أسود حتى عدّلت من مزاجه قليلاً: - يحيا الفلاديميري، يا كريستينا. لا تعرفين ما هو ؟ حسناً، أنا سأخبرك بعد أن تنهي رقصة الأرملة السوداء. مذي ذراعيك أكثر. اقبلي برقصة معي. لا تتحسري على شباب، يضيع منك بسرعة هنا في هذا المكان. لاشغل لك في المرآة التي تضعينها في حقيبتك الجلدية. هذه التجاعيد لا تعني شيئاً. ليست خطوطا مهمة. أنا أنتشلك من محنتك حتى أهزّ صورتك في المرآة. أنت لست أنت، يا كريستينا. لا تهمّني العلاقة معك. المرآة تجرح في الأعماق، وهي لن تجرحك عندما تتوقّفين عن النظر فيها. هل فهمت - الآن - لماذا أنتشلك من محنتك، أيتها الجنيّة الماكرة؟!

الفصل الثاني: وادي السيليكون

نزل الرقيب رشيد عثمان من الجرود العالية متأنياً ودامعاً. لم يدرك سبب الدمعة التي تطفر من عينيه في هذه اللحظة. كان بحاجة لشجاعة مضاعفة حتى يقدم على فعلة، تغيّر من تاريخ القرية التي يلوذ بها مع فرقته. كيف يمكن لرجل مثله خبر العيش القاسي في الجبال الباردة أن تدمع عينه، وتفِخُ في قلبه أفعى الجرس المجلجلة؟! لا يمكن القول إنه اصطدم بهذه الأفعى من قبل في طلعاته الاستكشافية الاحترازية التي كان يحرص على القيام بها انطلاقاً من الموقع الذي يتولى مسؤولية حراسته. اكتفى بتجميع بعض المعلومات العامة عنها من موسوعات صفراء غامضة، كما تعود أن يفعل. اليوم بات يدرك أن هذه الأفعى موجودة في داخله، وليس في أيّ مكان آخر. هل كان لصوت الأجراس المنبعث من بين الصخور الصمّاء الثقيلة التي لا تتدحرج من أمكنتها أثراً، يمكن الحديث عنه في نهاية قصته؟ السؤال لم يعد ممكناً الإيحاء به هنا وصولاً إلى وادي السيليكون الذي يقع مباشرة في أسفل الجبل، من دون معرفة أكيدة، بدلالات الكلمة، وإيحاءاتها الغامضة.

لم يكن ممكناً وصف الصوت الذي ينذ عن الحراشف في أسفل ذيلها، وهي تمارس هواياتها في الانقباض على الرمل. ليس هناك مفردات عارية ومجردة، يمكنها أن تقوم بهذه المهمة الثقيلة. لم يكن بوسع الرقيب رشيد عثمان الاستدلال على غاية الأفعى المجلجلة في إطلاق صوت رهيب لحظة دهمها لضحاياها، بعكس مخلوقات كثيرة تنفّذ مهمّات من هذا النوع، بصمت مطلق. ليس سهلا على عسكري مثله تفسير حركة الحراشف، والتصاقها ببعضها لحظة التنكّر للرمل البغيض الذي يلتصق بجلدها الأملس اللزج. كان يدرك أن قاموسه من المفردات المجنّحة فقير، وبالكاد يسعفه في تدبّر أمره مع كريستينا. كريستينا المنفلتة من أيّ عقال. ابتسم للفكرة. تساءل بخبث متوهّج لمَ لا تكون كريستينا أفعى من نوع ثان دون حراشف وصوت مجلجل؟! مسكينة. لا يمكنها أن تكون كذلك، بالرغم من عنادها وشبقها الغامض. - بوسعي أن أصفها بنصف صفحة تعبير. أن ألتفّ على مكوّناتها الجسدية، بعشرين كلمة. أن أجعلها تنفر من شبقها بهمستين

ونصف. - حدّث نفسه، وهو يتدحرج مثل كرة سمينة في المنحدر الترابي.
- صحيح أن حياتها معقّدة، وتتجاوز الإنشاء الذي كنا نجيد كتابته في صفوف المرحلة الابتدائية. لم يكن يشكّل غواية عند أحد. كان يشبه تعفير الرأس بالتراب في لعبة كرة قدم خاسرة، تنتهي بالتبوّل في كأس المنتخب الفائز. لن تنتهي هذه التداعيات هنا. سيكون رحيماً، إن انتهت. سوف يقرّر البحث عن كرة افتراضية؛ ليكمل طريقه بعيداً عن هذا المكان، ويحظى بمتعة التعفّر بالتراب قبل أن تلتهمه الأفعى المجلجلة، وهو في طريقه؛ لينفّذ فكرة جهنمية، لن يحتملها العميد النمراوي، ليس لأنها تتقاطع مع طريقة تفكيره، بل لأنها تشبه مواصلة تعفير الرأس بالتراب دون طائل. سيُلقى القبض عليه، ويُوضع في حفرة، يحفرها بيديه الآثمتين. كيف سيحفر الحفرة، وينام فيها ثلاثة أيام عقاباً له على جناية ثقيلة، من دون أن يتعرف على الذرات الآثمة التي ستلتصق بجسده، وتجعله يستشيط غضباً مكبوتاً، بحراشف بلورية ممتلئة بأبخرة نارنجية، تتصاعد بالتدريج من جسم مهان، وعظام مجرحة؟! مَن سيصير الأفعى في لعبة مثلثة الأطراف: كريستينا؟ أم الرقيب رشيد عثمان؟ أم الأفعى ذاتها المهدّدة بأن تفقد صوت حراشفها الجهنمي بضربة واحدة من العميد النمراوي؟!

نسي الرقيب رشيد عثمان وصف صوت الحراشف المذلّ. لم يكن يملك الكلمات التي تكفيه؛ لينهي مهمته الصعبة والمكلفة. كانت رحلته بطيئة. الدقائق ممطوطة، بعكس الأيام التي كان يقضيها في الثكنة. شعر أنه اختار توقيتاً سيئاً وعكراً لها. زاد في شعوره الاحباط أن ثقل عقارب الساعة يَصلي ظهره، وهي تدور في مكانها، وتكويه دون أن تنفرج أو تتباعد في ما بينها؛ لتقول شيئاً عن التوقيت الشتوي الجديد الذي تنتظره الأفاعي؛ لتختار مبيتها، وتغيّر جلودها وحراشفها، وتتزوّد بسموم جديدة وطاقات بأقفال، تتفجر من دون مفاتيح حين يُلقى بها من فوق الجسور.

البطء في رحلته كان متعمّداً، ويكوي أضلاعه من باب قياس وحدة الزمن. ليس مستبعداً أنه كان يتلذّذ بالشعور به. لم يكن يملك مشاعر جديدة؛ ليقول شيئاً عن حالته في النزول نحو الوادي، أو في الصعود نحو تلة أخرى. نشوة الفودكا الثقيلة تبيت في رأسه، وتبادله بغواية أخرى، لا تقل في بهجتها عن النوم مع كريستينا في حظيرة الخنازير المطيّنة التي كانت تقتاده إليها حين تكون راضية عنه. السباحة في الطين القذر متعة. يعيد السابح إلى غرائزه الدنيئة برقبة طويلة وجزمتين جلديتين من اللدائن المصفحة.

وصلة الشهوة قادته في هذه اللحظة إلى تلة جديدة. تلة لم يعرفها من قبل كعسكري مجنّد متواضع بخبراته التي يتنصّل منها في مناسبات كثيرة. هرش رأسه، وتساءل في لحظة صحو ما إذا كان تمّ نقلها هنا لأغراض حربية. كانت التلة كبيرة وضخمة، وهي تحتل موقعاً، لا يمكن لأنسي أن يقوم به. دار الرقيب متوجّساً من حولها، ونبش في كيس القنب الصغير الذي يضعه على ظهره عن منظاره المقرب. ركن خلف صخرة مطلة على السهل، ونظر مبحلقاً ومتأففاً.

كان ثمة هدوء مفزع، يهزّ الطيور الناشبة في الخلاء على أن ترتعد، وتهرب من ريشها. ارتعدت فرائصه. أراد تعريفاً جديداً لها. ليست ركبه بالتأكيد، وإلا ما قوي على الرهز في الليل مثل حصان رهوان. بحث عن وصلات راجفة في جسمه. شعر أنها تستقر فوق الكتفين. تنبق وتتكوّر تحت رقبته من الخلف. تحسسها. أراد أن يبتسم. طالما قرأ عن فرائص ترتعد في كتب المرحلة الإعدادية، وكان يعتقد أنها تنوجد في الركبتين، واليوم عرف أين تقع هذه اللعنات عندما شعر بلزوجة الخوف، وملوحته. الخوف والماء يجتمعان على أرضية واحدة. يجمعهما طعم واحد. الخوف مثل الكافور - أحياناً - لذيذ وضروري. ما توفّره كريستينا له بإصرارها وعنادها على خنق الرغبة بينهما في السرير شبيه بما يوفّره المشهد الغامض المفتوح أمامه على مصراعيه. كانت هناك جماعة مؤلفة من حوالي مئتي شخص، يتشحون باللون الأزرق، وبعضهم يحمل رايات زرقاء مكتوباً عليها كلمات بحروف غريبة، لم يتمكّن الرقيب عثمان من تهجئتها. لم يسبق له أن اطّلع على مثل هذه اللغة. فكّر بينه وبين نفسه أنها قد تكون من اللغات الميتة المنقرضة. كيف يمكن ذلك؟ من أين له أن يجزم بأن هذه أبجدية ميتة؟ ولماذا تقع عليها هذه الجماعة الغريبة في مكان كل ما فيه يوحي بخوف له أذرع، ويعشش في النفوس الراقدة بسهولة عجيبة. آثر الرقيب أن يغادر المكان بسرعة قبل أن يشعروا بوجوده؛ لأنه لن يخرج سالماً من هنا، مهما كانت مهمة هذه الفصيلة الزرقاء. التفّ على جسمه، وقرر مغادرة المكان منبطحاً، من دون أن يحدث صوتاً. بدأ مهمته بالرجوع من الطريق الذي قدم منه، وقام من هناك يمشي على قائمتيه مثل بطة عرجاء. ما إن ابتعد عن مكمن الخطر حتى أطلق لساقيه الريح. لم يقرر الرقيب أن يفكّك الشعور بالظاهرة، كما اعتاد أن يفعل في مواجهاته مع كل الأشياء الجديدة التي تعبر من أمام ناظريه. لا يعرف من أين اكتسب هذه العادة، ولكنه كان يشعر بحيويتها حين يكون على رقاد. الزمن عطيلة، لا يمكن التفلّت منها خشية تلميع أوقات أخرى، قد تكون

أسوأ حين تهبّ من جهات غامضة، لا يعرف إلى أين قد تفضي، في أحايين كثيرة. كان يضحك، ويقول متهيجاً: - نحن سلالات محسنة من وحوش ظافرة. لابد أننا كنا نقف وراء كل هذه العتمات التي تلفّنا، وكانت تلفّ أجدادنا من قبل.

انعطف وراء تلة رمادية تعلوها بعض أشجار البلوط الرمادية المحترقة. عبرها كالسهم دون أن يتلفّت وراءه خشية الانزلاق في أفكار جديدة، تعود عليه بأضرار فادحة. وجد لوحة طرقية تشير إلى وادي السيليكون. كيلومتر واحد يفصله عن هذا الوادي الذي غلبته شهرته من دون أن يمتلك شيئاً واضحاً، يدفع للتفكير به، وإعلاء شأن سطوته. لم يكن يفكّر إلا بأشغال كريستينا. ليست هي مَن تستحوذ على تفكيره. مدافن العائلة التي أعطت للمكان اسماً شبقياً، غرس أظافره في ظهر الزمن حتى أصبحت هي نفسها عنواناً للقرية، والقرية عنواناً لها. المدافن التي تحوطها زهور غريبة وأشجار الكستناء البرية لم تضمّ في جنباتها المفقودة عظام الموتى الكبار فقط. كان هناك أسى ملوناً وغائراً في الحيطان التي عثر عليها الرقيب عثمان مصادفة في دفتر صغير مهترئ، تحتفظ به كريستينا قرطباوي في حقيبة جلدية حائلة اللون. لم يقرأ شيئاً من شجرة العائلة إلا وتبخّر لوناً إضافياً أمام عينيه من جسدها الشيطاني. خيّل إليه أن سكاكين نحاسية تخرج منه دون مناسبة؛ لتغيّر من مجريات الأحداث التي يفترض أنها ستدور بينهما. يدور رهان عبثي بينهما في لحظة باسقة من الموج الكبريتي الذي يضرب إليتيها حين يقرّر أن يجلدهما بعود رمّان، كان يخبئه في قميصه لهذه المناسبة. كانت تستحوذ على أشجار الرمان في المقابر التي تطأها حين تغادر سرير الرقيب المجند، وقد شرّعت قميصها على خذلان إضافي، لا يعرفه إلا مَن لمس نهديها بأصابع متورمة، تتخشّب حين ينزّ منها سائل حليبي حلو المذاق. تضحك كريستينا. لا تفتر همّتها حين يثور من دون سبب أمامها. أقسم في سرّه أن ينبش مقابر عائلتها دون أن يفسّر لنفسه تلك الرغبة الجامحة. قد يكون جرحاً غائراً بداخله. فحين تعرّف عليها للمرة الأولى في حانة الضيعة القريبة من الثكنة، قادته بعد كأسين من الفودكا في شوارع ترابية ضيقة، وصعدت معه تلالاً، ونزلت معه منحدرات حتى وصلت إلى مقبرة العائلة. لم يفهم الرقيب عثمان سبباً لذلك. حاول أن يستفسر عن عرضها الغريب، فلم يفلح. طفقت تتحدث عن مغامرات جنسية وعاطفية، دارت بين شواهد القبور. مغامرات كانت تستحوذ على تفكيرها درجة أنها صارت تغيب عن الوعي حين تحكي عنها، وتستحضرها، كما لو أنها سلالات أشباح من عهود سحيقة. قرر أن

يتجاهلها. لم يكن ينقصه أن يتذكّر منافسيه. صحيح أنه لم يحظَ معها بمغامرة واحدة خارجة عن المألوف في هذه المقبرة، ولكنه كان يفطن دائماً إلى اللقاء الأول الذي قاده إلى هنا؛ ليكشف عن لغة عارية، تصطنعها كريستينا حين تدور بها الأزمنة، وتتفلت على كرسي حجري، تركه الأجداد بجانب تمثال من المرمر، قطع رأسه أولاً، ثم مرفقيه، ثم اختفى كلية من المشهد، وبقي الكرسي الحجري الثقيل يذكر بالحارس الذي قعد بجانبه خمسة قرون قبل أن يُدمّر ويتلاشى في سياق حروب لم تهدأ. جلس هادئاً مكان الحارس. كان يلهث. لم يسبق له أن أحس بمثل هذا الشعور بالتعب. كأن شعوراً غريباً بشيخوخة مفاجئة هبط عليه بجناحي ملاك. خشي أن ينظر إلى فوق. التمثال سيسقط من مكانه لو فعل. انتابه إحساس غامض بأن ذلك سوف يحدث، وستندلع حروب كبيرة بين جماعات ومِلل، إن تقوّست نظرته. حرص على أن يغيّر من زاوية نظرته. رأى أنها زاوية مائلة. حرص على درجة ميلان، لا تحدث إلا في الأفلام السينمائية التي كان يشاهدها في طفولته. لن يكزّ الشريط الآن. لن يفعل. لأنه، إن فعل، فلن تنتهي قصته مع جلوسه تحت التمثال متحاشياً نظرته فقط. كان يعرف بإحساس لئيم غير مسبوق أن النظرة لن تقف هنا. لم يحدث معه هذا من قبل. تمثال هوى في الطين مئة مرة قبل أن يجلس في هذا المكان، ويتحكّم بأصول اللعبة. لن يقع هذا المرمر القاسي في مرمى خيارات كثيرة، جربها الرقيب رشيد عثمان، وهو يتدحرج في برميل معدني من أعلى نقطة في الجبل الذي يخيمون فيه. كان البرميل اختباراً لمشاعر يخبئها الجنود في الثكنات للحروب الكبيرة التي يستعدون لها. أما تلك الحروب الصغيرة التي لا يموت فيها أحد، فلا يلزمها سوى نظرات مشتتة في قيعان الظلمة. نظرات تعودت أن تكون حبيسة في القاع حين يشتد الخوف من حواليهم، ويختلط بالماء على أرضية واحدة.

رضي الرقيب أن يأخذ نَفَساً من عقب سيجارة مرميّ على الأرض. لم تكن هذه عادته. أراد أن يختبر قوة أنفاس صاحبه الذي جلس هنا في المكان نفسه. كان العقب نظيفاً، وفيه لذعة واضحة. خمّن أنه كان هنا قبل نصف ساعة تقريباً. حاول أن يرسم له صورة. لم يدركه إحساس كهذا من قبل. ماذا يريد الآن من تعقّب رائحة رجل غامض قعد هنا، ودخن سيجارة فاخرة قبل أن يغادر نحو وجهة مجهولة. لا يعرف لماذا يشغل ذهنه به. مَن هو؟ من أين أتى؟ ما هي الوجهة التي اختارها بعد أن فرغ من حمولة التبغ؟ لماذا اختار هذا المكان تحت تمثال المرمر؛ ليدخن سيجارته؟ وما هي الأفكار التي دارت في رأسه وتلاعبت به قبل أن يرمي العقب ويحرص

على ألا يدوسه بقدمه، كما يفعل الرجال الخشنون في الأفلام؟ لماذا يفترض أنه رجل خشن مع أنه لم يدس العقب؟ - ربما تكون امرأة، يا رشيد عثمان. ربما تكون امرأة في غاية الجمال. تراجع عن فكرته الجديدة. كيف يمكن أن تكون امرأة في غاية الجمال، وتعبر من هنا. المكان موحش، يا رشيدوف. كان يدلّع نفسه باسم، يعرف أن المجندين ينادونه به سراً بينهم. – الرقيب رشيدوف يفيض بالفرح حين يسمعه ويغضّ النظر. كان الاسم يذكّره بمجد عائلي غارب على ما يبدو. ليس الأمر كذلك. يخبط على جبينه. لا يعرف مَن نادى عليه بهذا الاسم حين شرب الفودكا الروسية المغشوشة بفخر شديد لأول مرة، ولكنْ؛ كان ينتابه شعور غامض بفرح زائد حين يسمعه سراً بين "الأقزام"، كما كان يسمّي المجنّدين الخاضعين لإمرته في الفصيل المسؤول عنه. أيها القزم، ناولني قصعة البرغل، وأنت - يا قزم - إليّ بمرق البندورة، ولا تنس أن تذهب اليوم إلى البرية؛ لتحشّ لي الهندباء. احرص أن تحشّها من جذورها. تعرف الدرس جيداً، أيها القزم؟ قلت لك ذلك من قبل. لا تنكر. إياك أن تحضرها من دون جذور. سيفسد درس الطوبوغرافيا. تعرف معنى ذلك. ستبقى وحيداً ليلة كاملة في "المصفاة"، ولن تخرج من هناك قبل أن ينطّ الجنرال شارل ديغول حياً من قبره، وينقذك.

ابتسم الرقيب رشيدوف للفكرة. لم تكن سمجة كثيراً. اعتاد من موقعه كرقيب مجنّد على أفكار من هذا النوع. ربما كان أقل الرقباء تسلطاً في تعاطيه مع الأقزام المجبرين بالخدمة في موقع، يتحول فيه إلى عسكري مجنّد شبيه بقلعة هشة وقابلة للسقوط فيه، ولكنْ؛ ليس في هذه اللحظة التي يتداعى فيه شبح الرجل العابر من أمام التمثال المحطّم القلب والفؤاد والرأس والكتفين، وينبغي عليه أن يتسلّى بواقعة التعرف به. ليس الأمل بالوصول إلى المقبرة العائلية التي كانت تزهو بها كريستينا مع ضيوفها، بل ثمة ما يحزّ عنقه حين يقترب بأنفاسه من درج الرخام شبيه بسكين مثلوم.

الوادي يخفي القصة كاملة. يضفي عليها غموضاً ومكراً. يحيلها إلى غزل جامح بالذبح. السكاكين التي يجول بها الباعة المجهولون في أكياس القنّب تدرّ عليهم ربحاً وفيراً. الصور التي يتبادلها القرويون في دفاتر سميكة ومشخرة تغري بالوقوف أمام كل سكّين على حدة. إنها ألبومات فوضوية عن معدات جرى تصنيعها بدقة في مدينة وزيرآباد الباكستانية. ألم يخبره نوزت خان بأن التفاصيل غير مهمة حين تقوم سكاكينه بمهامها:

- يا بني نحن لا نهتم بتجارتنا بينكم. لا تدر مالاً كثيراً. يقول التاجر الباكستاني الخبيث متضاحكاً. يهمّنا أن نجد ممراً آمناً لبضائعنا باتجاه الوادي. هذا هو كل ما نريده من هذه الأكياس التي تتنقل بينكم. لا تقلق. لن تطالكم أسلحتنا بأذى؟!

لم يكن الرقيب رشيد عثمان يعلق بكلمة واحدة على حكي نوزت خان. لكنْ؛ خطرت بباله فكرة أن يسأله عن سكّين صغيرة خاصة، يمكنه أن يخفيها في جرابه الجلدي على خصره دون أن يلحظها أحد من عناصر فصيلته. هز نوزت خان رأسه بالإيجاب. أنت تطلب فقط، ونحن ننفّذ بالمواصفات التي تحب. يمكنك أن تحظى بها في طلعتي القادمة. قل إنها أصبحت بحوزتك مجاناً، أيها الرقيب. غمز نوزت خان بعينه المصابة بحول وحشي، وهو يهشّ ذبابة صغيرة حطّت على أنفه المجدور.- لكنْ؛ لم تقل لي، لماذا تريدها؟! المعذرة على حشريتي. بوسعك ألا تجيب، إن أردت، ولكنْ؛ كما تعلم الفضول يغلي في عروقنا نحن سكان الجبال. تنحنح الرقيب متهرباً من الإجابة. كان جلياً أنه يريدها لاستخدامات شخصية. - أريد أن أحشّ بها الهندباء. أحس وهو ينطق بهذه الكلمات أنه يتدحرج من الأسفل للأعلى. وصار يلهث فجأة..

لم يقتنع نوزت خان بإجابته. سرح بعيداً. عاد إلى دياره على خيل الرغبات المنقوصة. ما الذي يهمه إن كان سيحشّ بها الهندباء، كما يقول، أو سيخبئها لأفعال أخرى. نحن هنا؛ لنبيع بضائعنا التي نصنعها منذ مائتي عام. الرقيب ليس من هنا. لا يعرف ما الذي ينتظر الوادي حين تصله جماعاتنا. ربما لن يكون هنا حينها. سيكون صعباً الحكي عن هندباء برية تؤكل من جذورها. ليس كل ما يقال هو فرض من فروض اللغة.

مشى نوزت خان دون أن يودّع الرقيب. في الطريق الوعر، حرّك العود الخشن في زاوية في فمه، وتجشّأ. كان شحيج بغال التهريب في الجبال المطلة على الوادي قد خفت تماماً. أحس أن البغل الوحيد الذي يجره بيده اليمنى لم يكن مرئياً في هذا الخفوت الصلب، وأن الصوت الذي يكركر في حلقه هو آخر صوت، يمكن أن تطلقه حنجرته. كانت النبتات الشوكية تتدحرج، وتغيّر من منظر الجرود التي تمتد أمامه. لم يأبه كثيراً بالمشهد. شعر بسعادة غامضة، وهو يتذكّر كيف أن هذا الشوك كان هوية المنطقة التي وفد منها. أطلق صيحة من أعماقه تنادت لها طيور الدراج الذهبية برشقات نارية قصيرة. كان يدرك بحدسه المدرب أنها طيور خرقاء، ولا تحب الطيران كثيراً. ولكنه تعوّد أن يشاكسها عند أشجار التوت التي تكثر

في قريته الجبلية. ابتسم. توقف. تطلع حواليه. شعر بسعادة غامرة عندما أطل وجه نيروزة مبتسماً من بين ضربات الأجنحة الذهبية. خطر بباله أن محبوبته ستقوده نحو البئر المهجورة لإكمال فصل السعادة الذي بدأاه معاً. شعور ناقص بالنشوة المغيبة يختزل سنوات ضائعة، لم يكن ممكناً توقّعه بالسهولة نفسها التي قذف فيها إلى هنا؛ ليبحث عن لقمة، لم تكن مستساغة في حلوق أهله، أو في أفواه مَن ساعده للوصول إلى بلاد الفاقة والعوز، من أجل التطوع في المنظمات الفلسطينية المنتشرة بكثرة في هذه الجرود الغامضة، والعمل السري في تهريب السكاكين الرشيقة.

شعر نوزت خان برغبة جامحة في الوصول إلى طيف نيروزة، ومساكنته. لوّح له من بعيد. كانت رشقات الأجنحة قد خفّت حدّتها، وابتعد معها الطيف حتى أدرك في سره أنه أضحى مستحيلاً اللحاق به، أو الوصول إليه. ابتسم. زاد من انفراج شفتيه. كشفت الابتسامة عن مقطع واسع في أسنانه. لم تكن تخضع لترتيب مغر. حدّث نفسه بأن ذلك لم يعد مهماً. نيروزة وَهم معلّق في سموات قصية مطفأة. ما رآه لا يتعدى الرشقات الذهبية لطيور الدراج اللعينة. استسلم للفكرة، وواصل نزوله الحذر في المنحدر.

كان النزول صعباً للغاية. بدا له أن المنعطف المنحدر الأفعواني ليس أكثر من فكرة. كان كيس السكاكين يصدر أصواتاً، لم يكن ممكناً لسواه أن يميّز أنواعها. سكّين الكوكوري والنيب لا يشبههما صوت، سواء استوردهما المتقاتلون في هذه البلاد من الصين، أو تايلاند. الصوت الذي يتلجلج في الكيس يترك تأثيراً مسكراً على نوزت خان. في تاريخ السكّينين أعمال بطولية، لا تُحصى.

الفصل الثالث: كلب أندلسي ميت

استيقظ الرقيب رشيد عثمان على رائحة الفودكا الروسية الثقيلة تملأ غرفته. خبط على رأسه محاولاً التركيز على الحلم الذي غيّر فيه بهدوء إنساني مفرط مفردات ماجنة إلى مفردات في غاية التهذيب. أعاد كتابة حلمه الفائر بكلمات معقّمة. تبدو كريستينا مفقودة. أقل من طائر ورقي على عشب أخضر، لا حول له، ولا قوة. ليس لها أثر في الورود الذابلة التي تيبّست على الطاولة العرجاء. كان يعرف أن نخالة اللغة أقوى من الجميع. لم تكن هشّة كما يراها البعض من غربال، لا يتوقف عن الهز والارتجاج. لم تكن النخالة أكثر من ذرّات، يصعب جمعها على بعضها، بسبب من طبيعتها المفكّكة التي لا تجتمع إلا لتتناثر في أفضية مفرغة من الهواء. ابتسم ابتسامة غير مفهومة. لم يكن ممكناً تفسيرها. لو أراد العميد النمراوي الاكتفاء بإنزال عقوبة قاسية به، لما أمكنه تفسيرها، أو قول بضع كلمات عنها. شعر بيُتم عاطفي. كان يكفيه ابتزاز النص من زاوية أخرى. لم يكن لالتفاف عليه ومهادنته إلا تنازلاً رخيصاً منه. ليس أمامه سوى الابتسام. لقد تغيّر الفعل، ولم تعد كريستينا أكثر من نزال عاطفي أجوف، يسبح من تلقاء نفسه في كهف بارد وقاتم في هذه القرية الضائعة.

نهض مترنّحاً من سريره، وهو يشعر بدوخة ودوران في الرأس. رائحة الفودكا التي تنزّ من جلده، وتختلط برائحة عرق حادة، كانت تستثير كريستينا، وتزيد من التصاقها به. لم تكن تقبل أن يذهب إلى الدوش في الحمام العمومي الذي نصبه جنود الثكنة بأيديهم قبل أن يزورها. الدوش لم يكن أكثر من وعاء معدني مثقب في أسفله، ويوضع فيه من الأعلى أنبوب مطاطي. الماء كان بارداً صيفاً شتاء. ومن لم يطق لسعة البرد من الجنود آثر أن يقلّل من فرص الاستحمام التي يمكنه أن يحظى بها في أوقات الهدوء والسكينة التي تمرّ بها الثكنة.

لم يكن سرّ كريستينا مخفياً على أحد ممّن يلتقيهم رشيدوف في خمارة بو جوزيف في القرية الصغيرة الوادعة. كل مَن عرفها، أو سبق له والتقى بها في مناسبة من المناسبات كان يعي أنها تقوم بأفعال غريبة في الفراش. لم يكن صعباً على الرقيب رشيد إدراك نقاط ضعفها. ربما كان

عليه أن يدرك نقاط قوتها في الواقع. لم تكن أفعالها ميالة إلى الضعف. كانت كريستينا جامحة وقوية، ولا يمكنها التنازل عن رغباتها. لم تحقّق إلا ربع ما تحلم به، أو أقل من ذلك بكثير. ليس هناك تقديرات حول ما كانت تحلم بتحقيقه. الرقيب رشيد لم يكن أكثر من حزام ممغنط حول وسطها حين تريد أن تتزنّر به، وتفجر حديقة من الأسماك الطائرة. كان يسقط في يده عندما تشذه إلى صدره، وتعضه من رقبته، ثم تدفع به إلى السرير، وتقوم بتقييده بكلابات حديدية كانت تخبئها في كوميدون قريب من الشباك المغطى بستائر ثقيلة. الرقيب رشيدوف كان يشعر بسعادة غامرة حين تقوم بهذه الأفعال الغريبة. لم يكن يرفضها أبداً. كان يستسلم تماماً لرغباتها ويشرد وراء أحصنة الرغبة. لم يكن يفور في أعماقه إلا صدى الريح المتوحشة في المدن الغريبة التي يعبر منها مع فرقته حين تجيء الأوامر من قيادة الأركان في دمشق، بالانتقال من مربع إلى مربع.

وقف عند الشباك المطلّ على الساحة. رأى ثلاثة من عناصر مجموعته يحملون جثة كلب ميت. مسح عينيه بقفا يده. رأى جثة كلب منتفخة. كان الثلاثة يكمّون أنوفهم بكمامات قماشية متسخة. من المؤكد أن الرائحة النتنة التي لم تكن تصل إليه كانت تقتل كل شعور حي بداخل هؤلاء الجنود، وترمي بهم في حضن النجاسة الآدمية عندما تتخمر في رأس قاتل متسلسل. تابع المشهد بعينيه كلتيهما، وقد تجمّد وجهه، وعندما أقعى الثلاثة عند حفرة أعدت قبل بعض الوقت، ورموا جثة الكلب الميت داخلها، قام أحدهم بردم التراب فوقها بمجرفة حديدية صدئة، وغادروا المكان على عجل. ترك الرقيب رشيد الشباك، وهو يفرك خصيتيه بحركة برية لاإرادية، ومضى؛ ليرتدي سترته العسكرية. وقف أمام المرآة بكامل قيافته، وحدّق طويلاً في الخط الأسود الذي ظهر فجأة تحت عينه اليسرى. لم يكن قد لاحظه من قبل. بدا أن الجفن قد ارتخى قليلاً أيضاً. لم يشعر بقلق. لم يكن هناك ما يقلقه، بالرغم من شعوره بخدر في فكّه السفلي المحاذي للجفن المرتخي. شدّ حنكه بيده اليمنى. عدّل من قوامه، وابتسم ابتسامة، تشبه الأولى. بدت له أنها مفهومة. لم تكن كذلك. كان قلبه يحدّثه بشيء غامض. لن يمر الليل على خير، وما عليه سوى أن يتحاشى زيارة خمارة بوجوزيف واتقاء أذى كريستينا. لم يصدّق قلبه يوماً. كان يدرك أن عجزه يكمن في هذه العضلة البلهاء. حتى هذه الشرايين التي تكاد تنفجر من تلقاء نفسها لم تكن تقنعها الخطوات الاحترازية التي يقوم بها أحياناً من باب التروّي في اتخاذ القرارات. مرة واحدة أنقذه حدسه من سيارة مفخخة، كادت أن تنال من من أفراد

المجموعة حين كانوا ينتقلون من مبيت إلى مبيت. رأى من بعيد سيارة لاندروفر زيتية اللون متوقّفة على حافّة الطريق. وقف الرقيب رشيد في المقدمة. وتناول منظاره المقرّب. رأى شيئاً غريباً في مقدمة السيارة، لم يستطع أن يتبيّنه. حاول تمييزه والتعرف إليه، لكن ذلك لم يكن ممكناً بسبب بعد المسافة. كان شيئاً شبيهاً برأس بقرة ضخم. أمر المجموعة بالتوقّف. نعم، كانت سيارة مفخّخة. لم يكن ممكناً إنكار ذلك، فما إن أداروا بوجوههم ومشوا في الاتجاه المعاكس حتى اهتزّت الأرجاء. آثر أصحاب السيارة تفجيرها عن بعد، ومغادرة المكان حتى يضيعوا أي أثر يمكن أن يدلّل عليهم. ترذد أن المحاولة تستهدف اغتيال العميد النمراوي، من جهة صديقة تريد تأديبه، وبعث رسالة له؛ ليكفّ عن التنسيق مع جهات مناوئة. فهم النمراوي الرسالة تماماً، وصار يتحرك بمزيد من الحذر. لم يعد يظهر إلا نادراً. وصار يرسل معاونه؛ ليقوم بتنفيذ بعض المهام.

حدّق رشيدوف بجفنه الأيسر. رأى أن هذا الارتخاء علة بدنية، لا يمكن التقليل من شأنها. حدّث نفسه أنه لابد له من زيارة الطبيب في أول إجازة إلى مدينة بيروت. لم تكن الفرص متيسرة كثيراً، بسبب من انشغالات المجموعة بأعمال استطلاع وترقّب كثيفة. الرقيب الشاب كان لديه معارف في هذه المدينة الملونة المشبعة بالتناقضات على حواف برميل مشتعل، وبوسعه الاعتماد عليهم لتأمين زيارة الطبيب في مشفى الجامعة الأميركية حتى يقول شيئاً عن سبب هذا الارتخاء في الجفن الأيسر المترافق مع خدر في الفك، يتنقل بمزيد من التشبّع نحو صدغه وجبهته. ظن في بادئ الأمر أن الفودكا الروسية المغشوشة هي السبب، لكنه آثر الابتعاد عن هذا التحليل الذي لا يتوفّر على أدلة وبراهين، يمكنها أن تؤكد أن هذا المشروب البطولي مفتوح على هذه العلة. بدا أن المرآة تتشقّق من تلقاء نفسها أيضاً، وهي تحاول امتصاص هذا الارتخاء من جفن الرقيب رشيد، لكن ثمة غشية أحاطت بوجهه، منعت من رؤية حبيبات الخدر، وهي تنزل واحدة وراء الأخرى في طابور مهيب.

سمع طرقاً قوياً على الباب. أعاد ترتيب هندامه، ونسي أمر العلّة. حمل بعض الأوراق، ومشى خطوتين باتجاه الباب الخشبي الموارب بخبث مصطنع، وفتحه على مصراعيه. كان مجنّداً ضئيل الجسم، يحمل ورقة صغيرة بحجم يده. حيّاه بسرعة، وناوله ورقة، وانصرف. بدا أن لونها للوهلة الأولى يختلف عن الأوراق التي يتداولها الجنود في الثكنات. فتحها، وأخذ يقرأ. حملق مندهشاً ببقية الحروف التي صارت تتسابق أمام

عينيه؛ لتشكّل جملاً حارقة. هل سيبتسم كعادته حين تعبس الدنيا في وجهه؟ أم سيلقي بها من النافذة، وينسى أمرها إلى حين؟ لم يقرر ما الذي سيفعله بها. كوّرها، ووضعها في جيبه، وأعاد التدقيق بوجهه ثانية. ثمة ارتخاء في الجفن الأيسر صار يغيّر من ملامح وجهه. لن يعود الرقيب القدير رشيدوف إلى سابق عهده. ستتبدل سحنته، وتصبح سوداوية، وسيفقد شيئاً من مرحه بالتدريج. سيزيد الارتخاء بضعة ميللميترات أخرى، وقد تنطفئ عينه اليسرى إن لم يعاجلها باستشارة طبية عاجلة. حدّث نفسه متعجلا النزول.

لم يكن مفهوماً بالنسبة له معنى هذا الارتخاء المفاجئ. لن يعرف الرقيب رشيد عثمان في الأيام القريبة الآتية أن هناك علاقة بين رائحة الكلب الميتة النتنة وهذه العلة البدنية السقيمة التي أخذت تزور وجهه منذ هذا الصباح، أما الورقة التي وصلته قبل قليل؛ فهي شأن آخر من شؤون وادي السيليكون، يمكن الحديث عنها في وقت ثان عندما يكون الجفن الأيسر قد انسدل تماماً على عينه.

الفصل الرابع: اللهب الأزرق

انهمر المطر في هذه الليلة العاصفة كما لم ينهمر من قبل. زاد معذله عن الأيام السابقة. أراد الرقيب الشاب أن يعدّل مزاجه بكأسين من شراب فلاديميري في حانة بوجوزيف قبل أن يعود إلى الثكنة. حرف طريقه بضعة أمتار، ودخل في حارة جانبية مقفرة. كأن ثمة ظلال كلب تتراقص على الحيطان التي تقع قبالته مباشرة. بدا له أن عصابة الكلاب التي شاهدها في فيلم في إحدى صالات دمشق تنتظره عند الهاوية المنتظرة على أحرّ من الجمر. تحسّس مسدس بريتا البلجيكي الذي يضعه تحت إبطه. ابتسم ابتسامة العارف الواثق عندما مرّت فكرة مجنونة بذهنه، تصوّر ببطء شديد أن أحد كلاب هذه العصابة سيصاب بسعار مفاجئ حين يراه، ويرتفع مترين في الهواء، ويقضم عنقه. كان يعرف أن هناك نوعية من هذه الكلاب أسيرة نزعات متوحشة، يمكنها أن تستهدف ضحيتها من "جوزة الحدباء". بعض كلاب الدوبرمان تفعل ذلك. ربما كلها دون استثناء. لا يعرف من أين استقى معلومة تفيد أن مخابر الزعيم النازي أدولف هتلر البيولوجية قامت بتطوير سلالة متوحشة من هذه الكلاب عن طريق تهجين نوعين مفترسين في الحرب العالمية الثانية. لم تكن معلومة دقيقة، لكنها تحدث في أي زمان، وفي أي مكان. هناك سعي محموم للفوز والانتصار من قبل جميع الأطراف التي تتشارك الحروب والفظائع، وليس ثمة ما يمنع هذا الجنون من الاندثار إلا اندثار الإنسان نفسه. زاد من توسيع ابتسامته، ودعا لحلول كارثة قبل أن ينبلج الصبح عليه. تمنّى في نفسه أن ينقضّ عليه كلب مسعور، ويقضم عنقه. ضحك بصوت مسموع: - يمكن ذلك طبعاً، ولكن؛ بعد كأسي الفلاديميري ودموع كريستينا.

قطع الهاوية بخطوات سريعة. بدا أن كلباً سلوقياً ضالاً فقد ساقه الخلفية، ويمشي بقوائم ثلاث هو مَن يقف هناك، ويترصّده. وقف الرقيب رشيد، وتأمله، وشعر بأسى مفاجئ في أعماقه. كان كلباً مسكيناً لا يمكنه تحمل كل هذا العذاب وحده. لقد عانى في النهارات التي بحث فيها عن رزقه. ألم يسمع تلك اللازمة التي لا تنتهي: يُخلق ويُخلق رزقه معه؟ ها هو قد خلق هذا الكائن المسكين على هامش حياة الكلاب المحترمة، وفقد

ساقه الخلفية، وهو يهمّ بالبحث عن رزقه. لم يرد الرقيب الدخول في جدال مغلق مع نفسه لن ينتهي حتى بموته وانطفاء جمرة نسله. آثر أن يغذّ الخطى باتجاه حانة بوجوزيف، والدخول في عذاب متاهة روحية تغنيه في هذه الليلة البطولية عن الأيام المفقودة التي لم يعشها رغم أنها قد انحسبت من عمره في بيانات الأعوام التي قطعها حتى الآن.

دخل في زاروب أضيق من سابقه. لم يكن هناك سوى طرق المطر القوي والإنارة الخافتة المتبقّية من حرب ماضية، لم يكن ممكناً الإجهاز عليها بالكامل. كانت آثار العيارات النارية الثقيلة والخفيفة ما تزال تدل على معارك عنيفة، دارت رحاها هنا، من حارة إلى حارة، ومن سطح إلى سطح. كأن نوع الطلقات وعياراتها والصناديق التي تم توريدها للمتقاتلين تحت صدقية الشعارات التي يتعلمونها قبل معاركهم المقدسة تشي بممول واحد. لم يكن ممكناً الاستدلال عليه. لكن مطارق الأشباح الثقيلة التي تركت ندوباً وجروحاً هنا ما تزال تئنّ في الزواريب التي صمدت، ولم تنهر. كأن المطر خُلق؛ ليغسل ما بقي من الآثام التي علقت بهذه الحيطان، وأتت على أسرار مَن عاش خلفها، وتبادل الحب مع محبوبه بالكتمان. بدا له أنه يسمع أنين امرأة تعيش هذه اللحظات في حضن رجل. لم يكن مهتماً بالوضعية التي تقوم بها الآن، لكنه شعر بدموع النشوة التي تسبق ظفرها بالماء الكاوي مثل طرقات تدلّك روحه، وتفركها، كما يُفرك جلد الميت بالماء الساخن والصابون على طاولة رخامية قبل مواراته الثرى. ضغط بلؤم على كلمة الثرى. كانت دمعة حامية تسيل على وجنته.

قرأ ما تيسر له من الفاتحة. رسم شارة الصليب على صدره. بدا له أن فعلته ليست مشينة، وأن ما يقوم به هو فعل انتفاء لا توكيد على حسنات الشيء الجديد الذي يقوم به. ضحك في سره. أصبح مقابل حانة بوجوزيف. آثر أن يلتفت بعينيه متفحصاً المكان من باب التأمين على الحياة التي قد لا تكلف سوى رصاصة بليرة ونصف في هذه البراري الآدمية الشاسعة. شاهد الكلب السلوقي يقف خلفه مباشرة. كان قد تبعه، وهو يعرج وينوء بأحمال الدهر الثقيلة التي ألقيت عليه من بين الكائنات الأخرى التي ستمر في ذاكرة من يشاهده، ويتعرف إليه. وقف الرقيب رشيد أيضاً. لا يعرف لماذا خطر بباله أن يدخل ويتناول شيئاً من أول صحن يصادفه على أول طاولة، ويخرج ليلقي به لهذا الكلب. شعر بدهشة كبيرة عندما لم يجده. وقف مخذولاً، وقطعة لحم العجل الناضجة بيده. استدار؛ ليجد قبالته شخصاً ضخماً. بدا من هيئته أنه ينوي الشجار. كان

صاحب القطعة قد لحق به، وظهر عليه أنه غاضب ومخمور. لم يكن بوسع رشيدوف الصمود أمامه بمنازلة الأيدي، إن قرر هذا العراك. آثر أن يتناول مسدسه، ويلقمه رصاصة طالباً منه التراجع للوراء. فطن الرجل الضخم لحاله، فتراجع على مضض، وعاد ثانية للداخل وهو يدفن شيئاً من حقده في أعماقه. كان الرجل الضخم قد عرف مَن هو غريمه المحتمل، لهذا آثر الانسحاب، والرجوع إلى طاولته. جلس على كرسيه، وكرع كأس العرق دفعة واحدة. عبر الرقيب رشيد بمحاذاته، ولم يعره اهتماماً. وصل عند البار. جلس على كرسي خشبي عال. طلب كأس فلاديميري. كرعه. طلب كأساً ثانية. مسح فمه بكم سترته الثقيلة، وبحث بعينيه المتعبتين عن كريستينا. لم تظهر في الحال على الشاشة المنصوبة في عقله. كان يعرف بحدس القطط أنها هنا، ولن تتأخر حتى تطل بقوامها العنكبوتي الطويل، وتشاركه الكأس الثانية. لم تفت دقيقة على إغماضة عينه اليمنى. كانت كريستينا تُبعد رجلاً سكيراً اعترض طريقها بيديها كلتيهما، وتتقدم من البار. جلست بمحاذاته. وطلبت كأس فودكا مزدوج. لم تكرعه. شمَّت حواف الكأس البلوري الشفاف. دلقت قليلاً منه على خشب البار العتيق. تناولت قداحة الديبون التي تخفيها في جيب سترتها الداخلي، وأشعلت النار في قطرات الفودكا الروسية الشفافة الخالية من الشوائب. رأى رشيدوف فيما يرى النائم لهباً أزرق يحرس أصابعها، وهي تتدفأ به. أراد أن يلعق اللهب، ويحرق شفتيه. قرأت أفكاره، وابتسمت. غمزت بعينها اليسرى، وهمست في أذنه: - يمكنك ذلك في الكهف، أيها الفتى. أنسيتَ؟!

انتبهت كريستينا لارتخاء الجفن الأيسر في عينه. لمسته بأصابعها. لم تسأله شيئاً. لكن ثمة حدس أضاء في قلبها من أن مكروهاً سيقع، وأن هذا الفتى لن ينجو. لم يكن ممكناً التكهّن بشيء. كانت تعرف أنها تقيم علاقة مع منبوذ. لم يكن الرقيب رشيد ينتمي إلا إلى جماعة غير مرغوب بها في هذه القرية المسيحية الوادعة الآن على الأقل. لم تكن كذلك في الأعوام الماضية حين نشبت المعارك فيها، وانسحب منها المقاتلون المدافعون عنها، ولم يبق فيها إلا العجائز وبعض الصبايا، وصار صعباً مشاهدة شاب فيها. أرادت أن تقول شيئاً، لكنها آثرت الصمت. إن كان سيصيبه مكروه، فإن هذا سيقع حتماً، وهي لن يمكنها فعل شيء. صحيح أنها لا تشعر بالتصاق عاطفي به، لكنها تجده لطيفاً، ويختلف كثيراً عن شبان تعرفت بهم من قبل أن يغادروا القرية إلى أمكنة أخرى فرضها منطق الحرب ولعبة التوازنات والتحالفات القائمة. لا ينتمي إلى جلدها. ليس ثمة شيء يعلق به من مسامات روحها. هكذا كانت تقول كريستينا في سرها، ومع هذا لم

ترفض العلاقة معه. كان يمكنها ذلك. لا تخشى شيئاً. لا أحد يمكنه أن يفرض عليها نوع العلاقة حتى لو كان نبياً مدجّجاً بالسلاح.

شربت آخر قطرة في كأسها، وشدته من يده. نزلا عن الكرسيين الخشبيين. مزا من أمام السكير الضخم، وقد احمر وجهه تماماً من الشراب. لم يقو على الحركة. ظل يتنحنح على الطاولة مثل ثور، وبيده شريحة بسطرما كبيرة. ابتعدا عن زحمة المكان ذي الإضاءة الخافتة دون أن يلتفتا إليه، باعتباره الخصم المفترض. خرجا إلى الشارع المعتم. كان الكلب السلوقي الأعرج قد عاد إلى الضوء ثانية. بدا عليه أنه يستعذب رشيدوف، ولن يفارقه في هذه الليلة. ابتسم الرقيب، وهو يشد كريستينا إليه، ويمشي برفقتها، وقد شعر بسخونة صدرها. قبّلها من شفتيها. استجابت له مبتسمة. أكملا طريقهما في الحارات المعتمة. سارا على غير هدى. كان شراب الفلاديميري والفودكا قد حسّنا من مزاجيهما، وفتحا لهما ممراً عاطفياً آمناً لهذه الليلة. سارا وهما متعانقين وسعيدين. هكذا ظهرا أمام الكلب السلوقي الذي مشى وراءهما، وكأنه يعرفهما منذ زمن طويل. لم يشعرا بضعف في ساقيهما من المشي في الشوارع المقفرة. لكن رغبتهما الجامحة بالعناق الناري فرضت عليها أن يسرعا باتجاه بيت كريستينا. عادا أدراجهما، وقد انتبها أنهما أصبحا على مشارف القرية، فلم تعد تظهر الأضواء التي اعتادا المرور بين جنباتها. توقف الكلب عن السير، وأقعى جانباً على ثلاث قوائم. مزّا بجانبه. كان يبدو في وضع مزر، وقد نال المطر من فروته المطيّنة. شعرا بشفقة مزدوجة عليه. قامت كريستينا بالمشي على ساق واحدة بضع خطوات حتى أنهكت. وقام الرقيب رشيد بالمشي مثلها على ساق واحدة حتى أنهك. جربا الألم الذي يشعر به هذا الكلب المسكين. نظر لهما متعجباً، أو هكذا خيل إليهما بتأثير الكحول. مشيا مرة أخرى على ساق واحدة، ومشى الكلب خلفهما، وهو يعرج ويعاند ويوغل في تعجبه. - يحيا الفلاديميري صانع المعجزات وقدر السكارى والعشاق والكلاب السلوقية الضالة.

وقف الكلب عند الحافة. الاستدارة التي خلفها بذيله المعوج ربما أعطت إشعاعاً، لم يكن ممكناً تحمّله. ما الذي يفعله شراب الفلاديميري حتى تتطابق رؤية شاربه مع كلب شارد ضعيف بالكاد تحمله قوائمه؟! سيؤجّل الرقيب رشيدوف الإجابة عن سؤال فلسفي بهذا الثقل، ويلتفت للأرملة السوداء التي سبقته في الدخول. نظر الكلب إلى صاحبه الجديد المؤقت، وهز ذيله. ليس صعباً التأكد من أن الذيل كان طرباً في هذه

اللحظة التي توقّف فيها المطر، وظلت لسعة البرد على حالها مثل سياط تدمي أطرافه المجرحة تأكل من جسمه المنهك.

دلف الرقيب من الباب الخشبي دون أن يودّع صاحبه. لم يكلّف نفسه عناء الالتفات للخلف. ظل الكلب متسمّراً في مكانه. لم يتزحزح. توقّف الذيل عن الحركة. سُمع صوت نباح مكتوم، تخالطه نبرة حزن واضحة. لم ينشغل الرقيب بها، فقد أصبح في حضن كريستينا، وأخذ يعتصرها حتى سمع طقطقة عظامها. تملّصت منه للحظات. أشعلت شمعة، وحررت نهديها بحركة سريعة من حمالة الصدر، وألقت بها على الكنبة. ساتان ثمين. تناولها رشيدوف، ووضعها على وجهه. كان يشمّها بأنفاس سريعة متلاحقة. ظل قميصها على حاله. انفرجت أساريرها عن ابتسامة جميلة عذبة، لم يسبق للرقيب المجنون أن رآها من قبل. رمى الحمالة في وجهها فجأة، وقبل أن تستيقظ من دهشتها كان قد انقض عليها، وألقى بها فوق السرير. ضربته بالمخدة ضربات سريعة متتالية حتى تتطاير ريشها في أرجاء الغرفة، ووقفت مسحورة تراقب ريشة تنزل فوق الشمعة، وتحترق بغبطة. ارتسمت طيوف لذة واضحة على وجهها، وهي تراقب الريشة الصغيرة. أرادت أن تطيل أمد اللعبة. حملت ريشة أخرى، وقزبتها من الشمعة. شعر الرقيب بالغيرة. حمل ريشة، وقزبها من الشمعة أيضاً. ضحكا معاً، وعادا ليضربا بعضهما بمخدة الريش الأخرى، وهما يحاكيانها بمرح؛ لتخرج ما في داخلها من ريش وألغاز وحكايا. صار يكلّم المخدة مازحاً، ويستنطقها أسماء مَن مرّوا برؤوسهم من فوقها. كانت كريستينا تتقلب على نار حارقة، يشعلها في أعماقها حين يصبّ الفودكا على حواف النبع، ويشرب منها قطرات، تتحول إلى لهب أزرق خفيف غير مرئي تحت لسانه.

لم يكن ممكناً التقليل من شأن الاثارة التي ولّدها إحراق الريش على لهب الشمعة. الألغاز والمخدات مثل النسوة، لا يتشابهن. عندما انحنت كريستينا على خلخال في قدمها اليسرى؛ لتصلح من وضعه قليلاً، قام الرقيب بحركة يائسة، تدلّل على عجلة، لم تكن تطيقها. وقف على رؤوس أصابعه، وقد أصبح وراءها تماماً. لوّح بيده، ثم هوى بها على إليتيها. نهضت واقفة دون أن تظهر غضباً أو تبرماً من حركته. رفعت ساقها اليسرى، وطوّحت بها في الهواء. سُمع صوت الخلخال واضحاً، وغاب الوجود وراءه.

انتفضت كريستينا في مكانها، وخلعت قميصها. ظهر تحت ضوء الشمعة نهدان متنمران. اقتادته من يده إلى لوح زجاجي على طاولة

صغيرة، وقد غشي قليلاً. صبّت الفودكا الروسية بتأنٍ مقصود. قرّبت الشمعة الوحيدة التي تضيئ الغرفة من سائل بطولي عديم اللون والرائحة. اندلع لهب أزرق خفيف متركز من فوق على كتلة برتقالية إهليلجية، صار يمكن رؤيته بالعين المجردة. كان على الرقيب رشيدوف أن ينحني ويلاعب اللهب الأزرق بشفتيه، بحركات مدروسة قبل أن ترضى عنه كريستينا في هذه الليلة، وتقدم له حلمتين قرمزيتين نادرتين في لونهما، سيحرص على أن يكويهما بشفتين، صارتا تحرقان للتو.

خُيِّل للرقيب رشيد أنه يسمع هسهسة تحت شباك الغرفة التي ينام فيها. فرك عينيه. شعر بطعم مرّ في حلقه. تحسّس شفتيه. كانتا متورّمتين قليلاً بفعل اللهب الأزرق. ظنّ أن الأمر كذلك. ربما كان حلماً من الأحلام التي لا تتكرّر إلا في قصعة البرغل والبندورة والمرق المتجمّد. ابتسم، وهرش رأسه للخلط غير المتقن بشكوكه. لم يفته طعم الفودكا، فقد ظل يحرق بلعومه حتى ساعة مبكرة من الصباح قبل أن يترك كريستينا في الفراش، وهي نائمة بعينين نصف مغمضتين. العجائز وحدهنّ يمكنهنّ توصيف هذه النومة بكلمتين حاسمتين: نوم الغزال. لا يفوت الرقيب أن يتذكّر أن كريستينا كارثة من نوع نادر. كل ما قرأه عن الأرملة السوداء صحيح. حتى محاولاته عقد مقارنات لفظية مع احداثيات كل أرملة على حدة، ذهبت أدراج الرياح. كريستينا لم تتمكّن منه حتى اللحظة. الشباك الفولاذية المعقّدة التي طوقته بها تفكّكت مثل غيمة ناتئة في سماء مقلوبة. ربما أحبّته. ربما استعادت شيئاً من طيبة ضائعة. ابتسم منكراً هذه الفرضية. نهض من سريره، وهو يتذكر الكلب السلوقي التائه. فتح شباك الغرفة، فتسلّل هواء بارد. شعر بألم مضاعف في صدغه الأيسر. سرت رعدة خفيفة في فكّه. نظر في المرآة، فوجد الارتخاء في الجفن الأيسر على حاله. ثمة شيء يدور في خفاء مثلث العصب التوأمي. قرأ شيئا من هذا القبيل في الكتاب الأصفر الذي وجده في القصر المحروق. تنبّه إلى أن كريستينا بالغت كثيراً في الليل بتقبيل الجفن المنسدل كأنها تزيد في علته.

خبط على جبينه. كيف فاته أن يلتقط تلك الإشارة الغامضة. لقد رأى عناصر مجموعته، وهم يحملون جثة الكلب الميت المنتفخة قبل يومين، وبعد ذلك، رأى نفس الكلب يسير وراءه البارحة، ويستأنسه. حدّث نفسه أن ما رآه لم يكن حقيقياً، وأنه بقايا حلم ثقيل بتأثير شراب الفلاديميري. إن كان الأمر غير ذلك، فكيف أمكنه أن يرى الكلب ميتاً، ثم حياً في مطاردة ملغزة غريبة، استمرت حتى ساعة متأخرة من الليل قبل أن يهجع هو وكريستينا في سرير مسوّر باللهب الأزرق.

ارتدى سترته. نزل الأدراج الخشبية التي تفصله عن ساحة الثكنة قفزاً. حمل مجرفة حديدية ملقاة بإهمال إلى جانب خيمة. مضى باتجاه التلة التي رأى عليها عناصره، وهم يدفنون الجثة المتطبلة. وجد الأرض منبسطة، وما من أثر لتراب رطب أهيل مجدداً على حفرة. بقيت المجرفة في يده. ركض وراء التلة، ثم نزل الجرود مسرعاً. بدا أن الريح الباردة التي تعيقه من التقدم قوية، وتحمل نذر الثلج. كانت لسعاتها مثل سياط تفترس لحم فخذيه. لم يشأ التوقف، والعودة للوراء. نظر إلى الأعلى، فرأى الكتل الركامية السوداء من الغيوم تبتسم له. سمع نعيق الغراب يشق السماء، فيوقظ الموتى من سبات عميق. أدرك بحدسه أن السأم في هذه الثكنة لا محل له، وأن ما ينتظره سيبدو صعباً. لم يسلم الرقيب رشيدوف من أذى الجرود التي تحيط به إلا لحنكته وذكائه وحدسه. طالما ظهر على التخوم متوجساً ومتوعداً.

زلزلت الأرض في هذه اللحظة، وشقّ السماء دوي انفجار هائل. طارت المجرفة من يد الرقيب رشيد. طار هو إلى الأعلى، وارتطم بالأرض. طار المكان. خيل إليه أن مروحة عملاقة تئن في السماء وتدور وتصدر صوت صرير مخيف. كانت الشفرات في محلها. السماء تدور. الأرض تدور. المروحة العملاقة تدور، وتقطع الرؤوس التي تصطف أمامها بعناية مذهلة.

لم يكن بوسع الرقيب الملقى على الأرض أن ينهض. شعر بثقل غريب في ركبتيه. نظر إلى الأسفل لم ير شيئاً. لكن الثقل كان يزداد، ويضغط على رئتيه، ويشلّ حركته. أراد أن يصرخ. تجمّد الصراخ في حلقه. سمع أصوات استغاثات وهرولات جماعية وأنابيب بدائية لرش الماء فوق حرائق مستجدة، ثم غاب عن الوعي. لم يكن ممكناً إيقاظه بهزّة يد. سوف تُصاب بالرعاش الأبدي كل يد تمتدّ له. كان مسكوناً بحبر أسود للكتابة في جدران الوعي للهرب من النمل الأبيض الكثيف الذي يعشش في القلوب غير المطمئنة. صارت الذاكرة خزاناً للثقوب، يمكن الحكي عنه. الأفضل أن يبقى في مكانه. ليس ثمة إصابة. ضغط الانفجار المتولّد عن انفجار صاروخ طائرة كاد أن يفجر رئتيه. سمع أصواتاً غريبة تحوم فوقه، ورأى وجوها يائسة، ليس بوسعها أن تقدم له شيئاً. إن قال الحكماء إن عليه أن يبقى في مكانه، فمن الأفضل أن يبقى في مكانه، ويتأرجح بين عمارتين شاهقتين، يمكن من خلالهما أن يستعيد ذكريات طفولته وفتوته ومراهقته في شريط واحد، أعيد توليفه في مقابر العوائل الكبيرة، وتم ترجيعه على بكرات فولاذية مسنّنة. ليس بوسعه أن يرفض، أو يحتج. عليه أن يوغل

في الرؤى حتى تتيبّس وتنشطر في مكانها من الأعلى للأسفل، كما تفترض الواقعة.

في حوليات هذه الواقعة أن طائرة اسرائيلية من طراز ف ١٦ ألقت بحمولة من صاروخ واحد فوق الثكنة المطلة على الجرود. لم يصح من غيبوبته؛ ليتفقد القتلى والجرحى، وليس بوسعه التقاط خبر دقيق حول الواقعة. لكنه سيبتسم؛ لأن السنجاب الوفي الذي يحمله في مخيلته ما يزال يتنطط بين الأشجار الحنونة التي رعت طفولته. ألم يقل له أبوه إنهم جاؤوا به من البساتين القريبة بعد أن وجدوه مقيداً إلى شجرة زيتون معمرة؟! صار يبكي. كانت الدموع أرخص شيء يمكن العثور في تلك الأيام التي تلت خروج أهله من حيفا. لم يكن ممكناً العثور على بضاعة مجانية تساوي الدموع التي تطفر من العيون دون حساب.

على العكس من الدموع. كانت الضحكة مكلفة. ضحكة واحدة أودت بأبيه. لو بكى ربما كان سينجو من الذبحة القلبية التي قضت عليه في ليلة شتوية باردة، لكنه آثر أن يضحك مثل مخبول، مع أنه لم يعرف الضحك منذ أن ترك أرضه وحصانه وشاربيه. كان مولعاً بالكيّ. يذهب عند بدوي مقيم على تخوم بادية الشام؛ ليدله على الأمكنة التي يجب كويها بسيخ معدني. يمضي إليه في كل شتاء، ويعود مخططاً بالأزرق في أماكن معينة في ظهره وصدره، وليس عليه سوى لذع هذه الخطوط بسيخ أحمر مجمر. مَن كان يمكنه أن يتحمّل هذا الطقس يمكنه البقاء في البيت وتسلّق شجرة التوت، والاستمتاع بالرائحة النفاذة، ومَن لم يكن بوسعه فعل ذلك، عليه أن يغادر البيت مسرعاً، ولا يعود قبل يوم واحد على الأقل حتى تتبخّر الرائحة والعيون المتجمدة مثل الأحجار التي رعت هذا الطقس، والتصقت بوحشة المكان. اختار في تلك الليلة الأخيرة التي تلت طقس الشواء الآدمي أن يضحك لسبب غامض، فتوقّف قلبه بعد أن عذّبه الألم أكثر من ساعتين. وهو يعذّب قطة مسكينة. ظل يتحشرج، ويضحك، ويده على صدره حتى فارق الحياة. لا أحد يعرف ما هو سبب ضحكته. ربما كان ممكناً زيارة قبره وسؤاله، لكن هذا يبدو مستحيلاً. ليس بوسع الكوابيس أن تجيب عن ذلك. ثم ما هي حاجة ميت لسؤاله عن سبب ضحكة أودت به؟ ألم يكن ممكناً سؤال الأحياء؟! الآن عندما يعود الرقيب رشيدوف إلى ذكرى الكلب السلوقي الأعرج، فعلى الأغلب سيضحك. ربما دون هذه الرؤية المجنونة ما كان سيبقى على قيد الحياة. لو لم يحمل المجرفة الحديدية؛ ليبحث عن قبر الكلب الضال لسقط ميتاً في الغارة.

سيضحك، ويبكي. لن يعود إلى اسمه وحياته بعد نجاته من سجل اختفاء محكم. ربما عليه أن يسابق اللهب الأزرق الذي يشتعل حواليه، وتفوح منه روائح غريبة. سيضحك للمرة الأخيرة، ويغادر هذا المكان حين يمكنه النهوض من الشلل المؤقت الذي يعاني منه، وسينفض عن بدنه تلك الخطوط الزرق التي تشكّلت بفعل هذا اللهب على صدره وظهره. ما يحدث أن الولد يتبرّأ من سكات أبيه. يدفع اللغة التي ورثها عنه إلى حدها المتطرف الأقصى. ليست نفس الخطوط التي رسمها البدوي في خيمته عند تخوم دمشق النائمة على كتف البادية التي تهتز الآن.

سيبتعد كثيراً وراء طيوف تتشكّل في كرات زجاجية. كل كرة ستشكّل قبة. وكل قبة ستشعل شيئاً من الماضي. الأرض التي ورثها سترتعد وتتوسع وترسم خريطة انتحارية في كل ذرة رمل، فمن هذه الخطوط الزرق ستندفع تلك الرايات التي ستعيد تشكيل الكتف المندفع بقوة وراء بواد جديدة.

مشى وحيداً بين الجرود المقفرة. سار على غير هدى. لم يرد أن يبحث بين الأنقاض عن أي ذكرى يمكن أن تعيده إلى الوراء. لم يعد هناك كريستينا. ماتت الأرملة السوداء في غارة لم تستهدفها. ماتت، وشبعت موتاً. كانت بطلة في ميتتها. ربما أراد أن يقتلها عمداً قبل أن يشرد في البراري بلا صوت. فاضت الثكنة التي قضى فيها عاماً كاملاً عن رغبات ناقصة. سيعود مرة أخرى ليرسم مساراً جديداً في رمل الصحراء التي قطعها أبوه مرات كثيرة؛ ليحصل على خطوط زرق رفيعة تؤهله أن يستعيد شيئاً من مجد ضائع.

في الطريق إلى الوهم يمكن أن تتقاطع أخيلة الطفولة مع أخيلة تقع في المستقبل. يمكن أن تفلت الأسماء من أصحابها نتيجة صدمة نفسية، فلا يعود رشيد هو رشيد. ربما يكتسب مواصفات جديدة في أرض جديدة. ما لم يفهمه الرقيب من قبل، ها قد جاءت الغارة؛ لتوضحه وتفسره وترسم في أخيلته كل تلك الخطوط الرفيعة التي يحتاجها المرء في معاركه المفتوحة مع الحياة.

تتبدل الأمكنة حتى نتبذل معها. فهم الرقيب رشيد عثمان للتو ما لم يستطع أن يفهمه من قبل. ضحك في سره. ألم تودِ ضحكة واحدة بأبيه؟! لكن رشيد لا يشبه أباه في شيء. قبل أن يأتي مجنداً مرغماً إلى وادي السيليكون كان صاحب ضحكة عذبة. أما أبوه؛ فلم يعرف الضحك منذ أن

غادر حيفا. لا تجوز المقارنة. ليس مهماً الالتفات إلى الإرث المعذب الذي حمله في صدره قبل موته. صار مهماً تعريف المكان بعد الغارة: الوادي الأخضر.

الفصل السادس: الجدة الشركسية الجالسة داخل عيني

انتصف الليل، وسقط الطائر في حومة اللغة الناقصة. لم تكن التضحية مكلفة. بقي الرقيب رشيد في الجرود متلطياً بشوك البلان حتى استقامت العتمة مع الكحل الأعظم العملاق. انتابته الحمى. فرك جبينه. ظل يرتعد ويتعرق أكثر من ساعتين. لم تطل عيناه أبعد من كفه. كل ما حوله يغرق في العتمة، والريح تصفر في الأعالي بنزق وطيش مدمرين. سمع أصوات عيارات نارية من بعيد. لم يعرف مصدرها. لم يكترث. ربما أراد في سره أن تخترقه واحدة، وتضع نهاية معقولة لحياة متسرعة وغير مكلفة. لم يبتسم. كان مجهداً، ويشعر ببدن محطّم. جز نفسه متهالكاً مثل أفعى، تركت حراشفها وأجراسها حتى يتفادى النبتات الشوكية القاسية التي جرحت باطن كفيه ووجهه وركبتيه بعد أن تمزّق بنطاله الخاكي. رفع يديه في السهل إلى الأعلى، ولم يبتهل. شعر بألم مضاعف في روحه، لم يعرف مصدره. كان روث الخيول الداشرة يعطب فؤاده دون شفقة، ويدفع به إلى الهاوية. كان يقف متفرجاً، وقد تصلبت يداه، وتسمرت عيناه في الهواء. أحس بجسده يتخثر من هول الصدمة مثل بقعة دم فاسدة. لم يقع من قبل. لم يعرف طعم الهول، كما تعرف عليه بعد انفجار الصاروخ. كان يعتقد أن القصف الجوي مزحة سمجة. مسح بشرته بكم سترته الثقيلة، ثم مشى بخطوات مترنحة، وهو يكزّ على أسنانه من الضعف.

وصل أعلى الجرد بصعوبة. وقف حتى يدرك وجهته. كان صعباً عليه أن يتبع حركة النجوم، فالغيوم الثقيلة المتراكمة تحجب كل شيء. أراد أن يستعمل حنكته الطوبوغرافية. بلل إصبعه بريق مالح متبقّ في فمه. دفعه في وجه الهواء. كانت لسعة البرد أقل مما يتصوّر. فشلت محاولته في تلقس اتجاه الريح. أراد أن يبتسم. لم يستطع. فكر في أن يجد طريقة أخرى للتعرف على وجهته. نسي كل شيء. قرر أن ينام للصبح، فمع طلوع أول ضوء يمكنه أن يعرف وجهته بشكل أفضل. بحث في العتمة عن زاوية يمكنه أن يتقي من خلالها البرد لو تكوم على حاله وأراح عظامه المطقطقة. كانت الحشرات الليلية المضيئة تغزوه، وتتسلى بها، ولولا خبرته لاعتقد أن رجالاً يحملون سجائرهم في الليل، ويتنقلون في هذه

الجرود القاسية بحثاً عن فرائس وطرائد سهلة. كانت جدته الشركسية لأمه تحدثه قصصاً خيالية حول هذه الحشرات، لم يكن ممكناً أن يتصوّرها. لم يفهم معنى أن يقوم ذكر يراعة الحباحب بفعل الضيائية الحيوية ليجذب الأنثى من بعيد. كانت جدته تضحك وتغمز لأمه وتقول: - غداً سوف يكبر رشيد، ويضيء مثل الحشرة حتى يتزوج ابنة جارنا دجه برابيل. لكنْ؛ عليه قبل ذلك أن يتعلم كيف يغسل مؤخرته حتى تضيء. كانت تغرق في الضحك حتى تصحو شجرة الكولونيا في الليل، وتنشر عطرها على وقع ضحكتها. لم يكن يرضى أن ينام قبل أن تجيء واحدة من هذه اليراعات، وتحوم حول أنفه، وتقف عليه حتى يحلم بسهى، ويفكر كيف يمكن أن تكون عملية الزواج وإنجاب الذكور والإناث من مكان واحد. قالت له سهى ابنة دجه برابيل المدفون في مقابر الشراكس فيما بعد إن شجرة الكولونيا لم تتفتح مرة واحدة في الليل إلا على ضحكة الجدة الشركسية سينا‌ميس، وعندما ماتت، حزنت الشجرة، ويبست، ولم تعد تنشر العطر أبداً حتى جاء الأب، واقتلعها، وزرع مكانها شجرة التوت.

لم يكن قد رأى هذا الذكر اللعين إلا في هذه الجرود.

استيقظ في الصبح على صوت راعٍ فوق رأسه، وقد تيبست أطرافه. كان قطيع الأغنام قد انتشر حواليه. نهض مرتبكاً. نفض التراب عن ملابسه، وقد فطن إلى لونها الزيتي المميز الذي يكشف هويته. نظر الراعي إليه نظرة محايدة، ومدَّ له قربة ماء كان متزنراً بها. بقي الرقيب رشيد متجمداً في مكانه للحظات قبل أن يمد يده باتجاه الراعي، ويتناول القربة؛ ليشرب ويغسل وجهه ببعض الماء. لا يذكر أنه شكر الراعي على ضيافته. سأله عن دير القمر. أشار له بيده نحو الطريق الذي يجب أن يسلكه. مشى طلوعاً باتجاه الطريق، وقد استعاد بعض حيويته مع شروق شمس خفيفة. شعر بمشرط يشقّ عينه، ويستعرض سيرة الكلاب السلوقية التي طاردته منذ أن كان طفلاً. وصل في استعراضه للشريط إلى الكلب الذي تبعه مع كريستينا. كأن الزمن يعيد ابتكار الدوران في محجر العين، ويلصق الصور في برهة فيزيائية، لا يمكن تعطيلها لمجرد أن يغمض المرء عينيه. كانت الأضواء التي تحدث تحت الجفن ظاهرة محيرة بالنسبة له. لم يفكر يوماً باللجوء إلى تفسير، يعينه على فهم تلك البقع الملونة التي تحدث في محجر العين لمجرد إغلاقها، والضغط عليه. كان يستمتع حين يقلب الأنوار وراء جفنيه. في الليلة الماضية فهم معنى اسم جدته الشركسية سينا‌ميس: الجالسة داخل عيني.

لن يكون صعباً عليه بعد ذلك إدراك سبب ارتخاء الجفن الأيسر. فقد رحلت الجدة صمام الأمان العاطفي الذي كان يشعر به حين يلتصق بحواف ضحكتها.

مشى الرقيب رشيد عثمان، وقد هدأت روحه قليلاً. كان ينقصه المسكر المعنوي حتى يكمل طريقه باتجاه الثكنة. لن يكون صعباً عليه بلوغها. قرأ في الأنواء المتقلبة من حوله أن عاصفة بانتظار أن تهب في أي لحظة. صار يغذ خطواته. شعر أنه اقترب كثيراً من هدفه. ترك لنفسه أن يتخيل بضعة كلاب شاردة تطارده في هذا العراء المختل حتى يسرع أكثر، وعندما شعر بخطر يتهذده من الخلف دون أن يدرك كنهه أو يتبينه صرخ بأعلى صوته، وهو يدق على الباب الخشبي: - جدتي سينااميس، افتحي الباب، أرجوك. هناك كلاب كثيرة تطاردني منذ سنين طويلة.

شعر الرقيب رشيد بدمعة مفقودة، أخذتها سينااميس معها. أراد أن يبكي بحرقة، وينام وراء ضحكة جدته الشركسية الجالسة داخل عينه.

الفصل السابع: مجمّع الشعراء الموتى

الثكنة لم تعد في مكانها. ليس هناك ما يؤكد وجودها عند هذه التلة. مُسحت من الوجود بصاروخ واحد. حجم الحفرة والماء المنبعث منها يؤكدان أنه صاروخ ذو قوة تدميرية هائلة. لم يبق من أفراد مجموعته سوى أربعة أشخاص والعميد النمرواي الذي أصيب بجروح متوسطة، وجرى نقله لمشفى محلي تحت حراسة مشددة. أما الآخرون؛ فسينقلون إلى أماكن سكناهم في المخيمات الفلسطينية المنتشرة في سورية للدفن وإقامة العزاءات. وقف الرقيب رشيد فوق النبع المنبجس من باطن الأرض، وأخذ يجمع الرذاذ المتطاير منه بيده، ويشرب منه. كان يشعر بعطش شديد. بدا أنه يطوي على سعادة داخلية غير مرئية للمشهد الذي يراه أمامه. فرك عينيه غير مصدق، وأراد أن ينفي ذلك لنفسه التي تعانده، وتأبى أن يفارق هذا الإحساس القاتل. كيف يمكن أن يتملكه شعور ثقيل في لحظة حرجة مثل هذه اللحظة.

نزل من عند التلة المتفحمة. الأشجار لم يبق منها سوى شحّار أسود. صار هناك اسم جديد للمكان: كنيبة رأس النبع. جاءت كريستينا من بعيد تقود مجموعة من العجائز المتشحات بالسواد. وقفت قريبة منه. ابتسمت له، لكنه أشاح بوجهه. ليس عنده أدنى شعور بأن ثمة تحرر من عقدة كاملة تكمن في هذا المشهد الذي يدور الآن. مَن يريد أن يقتل من؟ ليس السؤال مقلوباً من أي بداية إلا انتصاراً لهذا التحرر النفسي الذي صار يشعر به. ليس مقتاً لكريستينا. لكن النواة الداخلية التي تتشقق في روحه لم تعد تتمهّل في الإجابة عن سؤال حول مغزى وجودهم بين هؤلاء النسوة المسكينات.

قالت كريستينا إن وجود الثكنة بعد انفجار الصاروخ ليس مثله قبل الانفجار. أضافت بلهجة جدية إن على عناصر الثكنة مغادرة التلة دون إبطاء. فهم الرقيب رشيد عثمان الرسالة. حاول أن يفهم كريستينا أن هذا القرار ليس بيده. لم تفسح له مجالاً للرد. رمت بشالها الأسود المتطاير بفعل الهواء على كتفها، وانسحبت. العجائز انسحبن وراءها، وهن يتمتمن بكلمات غير مفهومة.

بقية النهار مز بشكل عادي. آثار الانفجار بدت واضحة أكثر بفعل مطر الليلة الماضية. نظر رشيدوف إلى غرفته، فلم يجد لها أثراً. ابتسم. مضى باتجاهها حتى يقنع نفسه يوماً بأنه بكى على الأطلال. كانت الفكرة أبعد مما يمكن الحديث عنه. آثر الانسحاب من المكان. لم يعرف أين يمكنه الذهاب. ليس هناك أدنى تصوّر عن مكان يمكن الانتقال إليه. وضع يديه في جيبي بنطاله، وسار على غير هدى. كانت الأشجار الشوكية قد ثقلت بفعل المطر، ولم يعد هناك ريح قادرة على إزاحتها من أمكنتها. نظر فيها متمهلاً. شعر بدمعة تنفر على خده. مسحها، ومضى. ليس البكاء على الأطلال إلا ثيمة شعرية، يمكن التذرع بها للانتقال من هزيمة إلى هزيمة. مثل المسكن الذي يتناوله المرء؛ ليتفلّت من مرض عضال. ربما تغدو في حياة الرقيب رشيد عثمان مثل المرض نفسه. في حياة هؤلاء البشر الأنقياء لا يمكن تصديق الدمعة التي تسيل على الأطلال.

قرر أن يمضي إلى حانة بوجوزيف. مشى في الزواريب المتعرجة. كانت الشوارع تغص بالوحل والماء والطين. تذكر اللهب الأزرق الذي ينبعث من الفودكا الروسية. أراد شمعة يضيء بها نهاره الأخير في هذه القرية الوادعة. بحث عنها في الذكريات، وفي جنبات الأفكار التي ظلت تغذي وحدته ليل نهار. شعر بشماتة روحية هائلة تجاه نفسه. لم يفرط يوماً بعنفوانه، كما يفعل الآن. لم يحب كريستينا. كانت أرملة سوداء. وتصرفت دوماً معه على أنها أرملة سوداء، يمكنها تبديل رأس الضحية بعد كأسين من الشراب البطولي.

طفرت دمعة أخرى

لم يبك من قبل. طيف جدته أرخى بثقل على روحه. لم يفارقه منذ أن جاءته سهى في المنام قبل شهرين؛ لتخبره أن الجدة سيناميس رحلت. كانت ترتدي قميصاً برتقالياً مشوباً بحمرة قانية، وتظهر شامة محيرة على رقبتها. اختارت مكاناً يمكن الوصول إليه مع أول نسمة هواء خفيفة تهب على القميص. ضحكت سهى عندما تنبه رشيد للشامة الجميلة على رقبتها. لا تترك الصورة عالقة في شبكية عينك، ستفضحني. أنت تعلم أنها شامة مميّزة. نهرته سهى دجه برابيل، وهي تبتعد. أردفت من فوق تلة عالية من الريش:- اليوم الأخير في العزاء، تدبّر أمرك، وتعال. الجميع ينتظرك.

وصل رشيد إلى حانة بوجوزيف. دخل من الباب. كانت شبه معتمة. ليس هناك سوى الساقي وراء البار يقوم بمسح بعض الكؤوس، ويعيد

ترتيبها. صبّ له كأس فلاديميري، وزاد الفلفل الأسود فوقه حتى يأتيه بمفعول مضاعف. لم يتفوّه الساقي بحرف. كان يتفنّن بمسح الكؤوس، ويترنم بأغنية شعبية قديمة. فطن رشيد إلى أن الساقية الشقراء قد اختفت، وحل محلها هذا الشاب. لم يسأل عنها. هي جملة يجب أن يقولها حتى يقطع الطريق على كلمات تتحشرج في فم الساقي جوزيف ابن صاحب الحانة. سنغادر التلة عند حلول الظلام. أرجو أن تخبر أهل القرية أن هذا قراراً لا رجعة عنه. فهم الساقي الرسالة، وغاب دقيقة، ثم عاد. ابتسم في وجه رشيد، وصب له كأساً آخر من الفلاديميري قائلاً: - على حساب المحل. بدا أن جوزيف يبارك الخطوة. ستتحرّر القرية من جنود محتلين، لم يكونوا محتلين لها. شرب الرقيب رشيد بشراهة. نال منه الشراب أخيراً. دفع ثمن زجاجة فودكا إضافية، ودسها في صدره. خرج وقد حلت العتمة، ولم يبق هناك سوى الإنارة الحكومية الخافتة المتبقية من عهد مضى. مشى يسابق ظلاله باتجاه الجرود المطينة، والهواء البارد يلسع أرنبة أنفه، ويكاد يطيح بها.

لا يعرف كيف اقتادته قدماه إلى مدافن عائلة قرطباوي. ربما لم يدر بخلده أن ثمة رغبات مقموعة بداخله عن شهوة فائرة تقوده بقسوة إلى هذه الأحجار الرخامية المنصوبة بهندسة متفانية، وتلقي به في جوف عتمة، لا ترحم. وقف عند الباب الحديدي المفتوح على مصراعيه. لم يكن قد نُصّب هناك؛ ليحمي المدافن من عبث المارة والفضوليين. ربما وضع هناك؛ ليمنع الموتى من الانتهاء من إجازاتهم الطويلة والخروج في العتمة إلى أمكنة مجهولة. كان تسديد الوقت في هذه الدوحة الخضراء الباسقة يقوم على التفنن بصناعة الباب والقفل والرتاج. الأشجار كانت تقف في أرتال نظامية متقاربة بطريقة مطمئنة وموحية. الرخام وشواهد المرمر الثقيلة التي تحوي نحوتات الأسماء والعبارات التي توحي براحة نفس الميت نُقشت بخطوط، فيها دلالات على قدسيتها.

وقف مشدوهاً قبالة قبر على هيئة كنيسة، وعلى بوابته تمثالان نصفيان لسيد وسيدة. أشعل شمعته التي تتقد وحدها في مخيلته، واقترب. وسع شبكية العين بنظرة محدقة. قرأ بتمعن اسمي والد ووالدة كريستينا الراحلين جورج وناتالي قرطباوي. نظر للأعلى، فرأى تمثالاً ضخماً لملاك يحمل بوق يوم الحساب. راق له المنظر كثيراً. تألم لأنه لم يزر هذا المكان من قبل. ندم لأنه لم يصدق كريستينا. كان يعتقد أنها تتفوّه بحماقات، وليس هناك ما يمكن تصديقه في رواياتها المجنونة. تسمّر

في مكانه، وهو ينظر إلى يمينه ويرى تمثالاً لسيدة باكية فوق قبر رخامي مبني على الطراز الإيطالي، وهي تحمل عنقود عنب بيدها. بدا واضحاً أنه مجسّم لامرأة ميسورة تنتحب زوجها. لم يقترب منه حتى يتعرف على ساكنه، لكنه حدس أنه ينتمي لنفس العائلة، وليس هناك ما يدعو للاقتراب. حزن في أعماقه. تشقّقت النواة الداخلية التي دأب على ترويسها في فؤاده حين يتعلق الأمر بخطر داهم. صار يدرك أنه يقف وسط متحف للفنون، وليس بيتاً للموتى. أراد أن يتراجع عن خطوته. بكى. لطم خديه. طلب من كريستينا أن تسامحه؛ لأنه يخطط لعمل شائن، وجلس محاذياً لقبر رخامي ثان تنتصب فوقه امرأة باكية تحت الصليب. نظر متفرساً في جسدها فرأى قميصاً رقيقاً يستر جسمها. تذكر مطلع قصيدة لناتالي قرطباوي كانت تردّدها كريستينا باللغة الفرنسية، وتقوم بترجمتها في لحظات انشغاله بمداعبتها. كان يعرف من الأرملة السوداء أن أمها الراحلة شاعرة. كانت كتاباتها تقتصر على لغة أهل الجبنة والنبيذ. لم تكتب حرفاً واحداً بلغة أهل الضاد. أصدرت مجموعة من الكتب الشعرية عن بعض دور النشر الفرنسية المرموقة، وكانت تعيش حياة هادئة إلى جانب زوجها مسيو جورج قرطباوي، وهو تاجر تحف مرموق، زار بلداناً كثيرة حتى طوّر تجارته قبل أن يقضيا معاً في نهر الموت برصاصة قنّاص، أصابت الزوج في جبينه، وأفقدته السيطرة على مقود السيارة بضعة أمتار حتى هوت بهما في النهر.

كانت ناتالي قرطباوي جميلة ورقيقة وحالمة ومشروع شاعرة كبيرة. قضت حياتها في التأمل والقراءة والخيال، وسماع الموسيقا الكلاسيكية، ورفضت أن تستمع إلى شيء سواها. لم تفعل شيئاً آخر سوى إنجاب كريستينا التي عاشت حياة مختلفة عنها تماماً.

أخرج زجاجة الفودكا الروسية "ستوليتشنايا"، وعبّ منها بفظاظة. بدا واضحاً أن الشراب البطولي أنهكه، ونال منه. آثر البقاء في مكانه مستنداً للجدار بعض الوقت. لم يشغل باله بشيء. كان يشرب، وينسى أنه يشرب. أتى على نصف الزجاجة قبل أن يدلقها على رخام القبر الذي يجلس بمحاذاته، ويفكر كيف يمكنه أن يشعل السائل الشفاف. حدّق فيه طويلاً. لم يكن يملك قدّاحة في جيبه. نسي أن يتدبّرها قبل مجيئه. حار في أمره. فكّر في إلغاء المهمة التي جاء من أجلها. تململ قبل أن يتخذ قراراً حاسماً يشعل ما بقي من هذا الليل، ويخبئ في أساوره تلك الطرقات التي ستميّزه حين يندلع اللهب الأزرق على كتلة برتقالية إهليليجة. سوف يأخذ

قسطاً من دروس الإضاءة التي توفرت له في هذه الحكاية. لن ينسى تلك اليراعات الفوسفورية المضيئة التي تشتعل من مؤخرتها نتيجة احتكاك مواد مشعة في جسمها مع الأوكسجين. وقف تحت تمثال المرأة الباكية. رسم شارة الصليب. ووقف فوق القبر، وحدّق طويلاً في الشراب بانتظار حدوث معجزة.

طال انتظاره دون جدوى. شعر بيأس مدوّر مثل بيضة أفعى عملاقة، تتدحرج على صدره، وتفقس في فمه. كان الطعم غريباً. احتار في انتقاء الكلمات التي يمكنها وصفه. ليس هناك تشبيهات في قاموسه اللغوي قريبة من طعم هذه البيضة. تحسّس شفتيه بأصابعه متوجساً. لم يكن ثمة قشور، يمكنها أن تؤكد أن بيضة فقست عليهما. لكن الطعم الغريب أخذ يزيد من حدّته في الجو.

رأى الرقيب رشيد عثمان فيما يرى النائم
أنه يدخل قبر جورج وناتالي قرطباوي
وينبشه بيديه الآثمتين
الآن - فقط - صار يعرف
مصدر رائحة البيضة العملاقة.
إزاحة البلاطة الثقيلة عن القبر
دفعت بهذه الرائحة
لأن تنتشر في المتحف والجوار.

الفصل الثامن: سهى دجه براييل

يقود الفنجان بين أصابعك إلى ضغط مضاعف على العنق. يكسر السلالم غير المرئية الموصلة إلى قامتي حين تتبدل أفكار بعينها في أظافرك الغامقة، وتتدرج نحو ألوان غير مسبوقة. لم أقل لك إن أظافرك تحمل أفكاراً. كل واحد منها يخبئ فعلاً وفكرة. لا تستسلم الفراشات تحتها. لا تنام بقلوب ضعيفة. لا تأخذ من لهب الشمعة إلا أقوى ما فيها حين تكون وحيدة ومطرقة أمامها. أقول لك فكرة عن لهب تحت أظافرك، وأنسى أمر الأيل وهو يستلقي أمامها واقفاً. لا فوقها ولا تحتها. ينتظر دمعة تسيل على وجنتيك حتى يتبعها بنظراته، ويعرف أين ستقف وتنتحب. ينتظر وقوفك بعد ليل ممدد طويل على أريكة قرمزية، وحين تنسحبين إلى فوق مندفعة بقامتك، سيصعد اللون معك في الستارة التي تقين بها جسمك. اللون يحلّق معك. جسمك يضيء نصف الغرفة ووجودي أنا يصبح ضعيفاً في الوسط. أنتظر بهلع أن أمتص اللون من أصابعك، وأنت واقفة تغطين نصف جسمك بفضاء قرمزي. أتبع علامات مضيئة في صوتك. أرتجف. أنحني أكثر على ركبتيك، وأنت واقفة تفسرين معنى اللهب في الشمعة. وتقطرين منها نقاطاً بيضاء في هواء رطب. أنحني على الينبوع الحي. ثمة شعرات تحميه. أفرّقها عن بعضها. أنت لا تشعرين بغصة السجن. ثمة حرية في النصف المعتم من الغرفة، أنتهكها بأصابعي: سأتعلّم أن أطير فوق أصابع قدميك في المرة المقبلة، وأسرق الخلخال حتى تظلين واقفة، وأنا أحلق برغباتي عند شمعة تضيء فوق ركبتيك. أرى في الينبوع كائناً مستقلاً، يتقن رقصة النار تحت خط مستقيم من شعرات، لا تتفرق. ليس الينبوع إلا لهب شمعة يحرق لساني، ويطيل وحدته، وأنت واقفة في فضاء قرمزي.

سأنتظر قدومك. من الصوف، أخترع أسطورة موازية للثوب الذي نعدّه في انتظار سقوط الأريكة من كوكب بعيد. كم قلت إني أقلب جوهر الأسطورة معك. الأسطورة لا تنهي الثوب. تحيك الزمن. لا تحيك الصوف. تحيك الوقت بانتظار قدومك على رؤوس أصابعك.

الأريكة تناسب قامتك. تعصى على قامتي. أفكر بأريكة قاطع طريق

ألتصق بها. الصوف يفر من النول، ويستقر في حضنك. الثوب سوف يدور في المغزل بحثاً عن أبواب إضافية تحت إبطيك. لا يتسلّل إلا ليبحث عن قافية في اللغة. اللغة تنسى أن تتجدّد على شفتيك. نحن في ثوب صوفي واحد. نسينا من حاكه للآخر. نسينا مذاق الصوف، وهو يعلق بشفاهنا، ويعيقنا من الحركة. لم تكن أسطورة غزل الصوف بانتظار عودة الغائب إلا صلاة وتعبد. نحن ننسى الأسطورة. نريد من الثوب أن يكون بأكمام طويلة، تدل علينا حين نلتصق ببعض. الصوف أبيض من غيمة ملساء. الجسد أبيض يتوارث فكرة الغائب، ويسقط على الأريكة من تلقاء نفسه. يتحرّر الصوف من يوم القيامة. لا يمر من خلاله. يعكس الجنة في يوم واحد واقع بين كسلين حين تفيض على صدرك. نحن سنعضّ على الصوف بأسناننا حتى يسقط عن كائنين مدوّرين، ولا يبقى منه سوى البياض العالق بجسدك. أعض قليلاً وحدي مغافلاً إياك. خيط الصوف العالق عند عنقك بقي يعاند فكرة السقوط. يتشبّث بحرية مفقودة. أعتقد أنني سأقطعه بأصابعي. أنت ستبتسمين، وتبقين عليه، وتغمزين لي بعينك اليسرى: دعه ليوم السبت القادم سيسقط وحده.

لا أصدق أن الخيط سينزل ويحرّر جسدينا من الثوب. سأغافلك، وأقطعه بأسناني. أو أقرب شمعة منه، وأرى كيف يفل وحده، ويتراقص اللهب على جسدك حين يسقط الثوب بالكامل. ظل الخيط وهو ينقطع ينعكس على نهدك الأيمن. سأبحث عنه بلساني في الغرفة نصف المعتمة. النهد الأيسر يختبئ مترجّياً خيط الصوف ألا ينقطع. يتكور أكثر في مواجهة محاولاتي التقرب منه. تنتفض الحلمة، وتقسو. ترتفع مثل غزال صغير غائص في الزمن. تتلون مثل نيزك. نحن ما نزال عالقين في الثوب الصوفي بين يومي السبت والأحد. أنا أبحث عن طريقة للتحرر منه، وأفكر كيف يمكن أن أقطعه بأسناني، وأذيب بلساني فروض غزالين في صدرك. ستبتسمين وتمدين يدك نحو فنجان القهوة. ستمدين لي بلسانك من فوق، وأنت تهمسين بمديح لخيط الصوف.

أرى طائراً أسود بمنقار أصفر يتسابق مع أنثاه على الشجيرات التي تتهاوى أمامي بقسوة فائضة عن الحنين. أراقبهما بحذر شديد. الضباب الكثيف الذي يخيم على البحيرة يمنع من تفخص الحركات الرشيقة التي يقومان بها أمامي، كأنهما اكتشفا وجودي وراء زجاج النافذة.

أستعير منقار الطائر الأصفر. أميّزه عن أنثاه. لا يتوقف عن الالتفاف عليها من الجهات التي يمكنه القدوم منها بضربات الريش الدائرية الحذقة

التي لا تنتهي. أقف وراءك تماماً. الأريكة تحتل الغابة. مخيلتي تتعدى مخيلة هذا الكائن الصغير. الريش الذي يستنفذه في مغازلة أنثاه تكفي حريقاً. سأشعل حريقاً كبيراً في خلفية الجدار الذي تعيدين توزيع مقتنياته، وأستفيد من حركاته الذكية في الهواء. أبدل معايير اللغة. أترك ألوانك الداكنة فوق لوحة لك تلحق بك. أعرف أين تحظ. أعرف السهل الذي تنتشر فيه. لا أتوقف عن المراقبة من فوق الأريكة. أنت هناك تتمددين مبتسمة. أنا أميل لضحكتك من فوق. أفكر كيف يمكن بحركة دائرية واحدة أن أحرّرك من حمّالة الصدر التي أشعر بعداء مستحكم تجاهها قبل أن تقدمي أنت على ذلك. أمتلك ريشة في مخيلتي. يمكنني أن أداعبك بها، وأنت مغمضة العينين. لا. لن أعصب عينيك. أكره ذلك. يمكنك أن تغمضي عيناً، وتفتحي عيناً. حدقة في سهل كبير. حدقة مغمضة باتساع. أقترب بالريشة من عنقك. أمرّرها فوقه. أنت تغمضين عينك اليمنى، ثم اليسرى. ترتخي يداك. تشعرين بخدر لذيذ. تطوف ابتسامتك على اللوحة، وتمتص الألوان ببطء شديد مثل ماسح ضوئي.

أنا أقف وراء حمالة الصدر تماماً. أعرف أنه يمكنني أن أحررك منها بأصابعي. أنت تعرفين ذلك أيضاً. لكنني أبحث عن حركة دائرية في الهواء من خلال الريشة التي أحملها بيدي. الحريق الكبير أصبح في الخلف. المخيلة التي ترضى بنا أصبحت وراء الصباح الذي نريده؛ لأقدم لك خبزاً محمصاً مع الزبدة ومربى الفراولة وكأساً من القهوة بعد انتحار جماعي لطيرين فوق الأريكة. الريش يشهد على ذلك. الحركات الدائرية تتجمع في هواء صلب وكثيف. أنا ما أزال أقف وراءك. أنت تخفين وجهك بالمخدة. أستعير منقار الطائر الأصفر، وأفك عقدة حمراء في حمالة الصدر. تفلت. تسقط على الأرض. أتابعها بنظراتي. تزداد الحركات الدائرية في الهواء. طرقات قلبك تصل نيويورك. كنت أعرف شيئاً عن الشرفة التي ستقفين عليها دون حمالة الصدر. الطير يعرف كيف يصل إلى هناك. أحضنك. نشهق حتى يختفي الطائران من وراء النافذة، ولا يعود هناك ريش ممكن على الأريكة. أعرف أنك تنفخين الألوان في جسمي. أصبح طائراً بمنقار داكن. أنزلق لتحت. عند السُرَّة يتكسر وزن الهواء، وتتوقف طرقات قلبك. تنخفض إلى مليون. أعرف أنني أنزلق أكثر عند النبع. أغلقه بفمي. أغلقه بالريشة التي ما تزال معي، وأمنع نفسي من التحليق لأعلى.

الفصل التاسع: بيضة الأفعى

جمهرة كبيرة من العجائز المتشحات بالسواد يقفن على أطلال الثكنة المدمرة. ما يزال المكان يستقطب أعداداً متزايدة منذ الصباح الباكر، بالرغم من سيول المطر التي تغسله، وتزيل عنه بقايا الحريق الأسود. همهمة تسري بين الجمهرة الغاضبة عن فعلة شنيعة، جرت في الليلة الفائتة بحق مدفن آل قرطباوي. الدليل على الواقعة واضح: هناك جمجمتان لرجل وامرأة مرميتان بالقرب من الحفرة الضخمة التي أحدثها الصاروخ.

كريستينا تبكي بعينين حمراوين، وتعرف في قرارة قلبها مَن الذي قام بهذه الفعلة، لكنها لا تصرّح أمام العجائز حتى لا يتشفّين بها. تتشهى شيئاً واحداً. تعرف أنها تريد أن تضع رصاصة واحدة بين عينيه، لكنها لا تفصح عن رغبتها. تعرف أن الرقيب المجنون هو الفاعل. كانت قد بكت كثيراً حتى بدا كأنها استنفدت دموعها لفترة طويلة. لا يبدو أن البكاء سيفيد.

لا أحد يعلم كيف علم العميد النمراوي بحادثة الجمجمتين، فغادر المشفى، وجاء؛ ليتفقد الثكنة المدمرة. نزل من سيارة جيب ومعه مرافقه الأسمر الطويل القوي البنية. اقترب من الجمهرة الغاضبة التي أفسحت له الطريق، وهي تبرطم منسجمة فيما بينها بشكل جماعي. وقف مندهشاً أمام الجمجمتين. اقترب من كريستينا؛ ليسأل. همست له بكلمات غير مفهومة، وابتعدت في الحال. آثرت ألا تتحمّل تبعات موقفها في العلن. عرف العميد النمراوي هوية الفاعل، فهمس لمرافقه بأن يحضر جهاز اللاسلكي على الفور. قفز المرافق مثل فهد مدرّب إلى سيارة الجيب، وفي أقل من دقيقة، كان جهاز الووكي توكي الأسود بين يدي العميد القويتين الذي أرسل برقية عاجلة تقضي بضرورة إلقاء القبض على الرقيب المجنّد رشيد محمود عثمان بن فاطمة مواليد ١٩٦٥ لارتكابه جنحة عسكرية، يعاقب عليها القانون. ما إن انتهى العميد من تطيير البرقية حتى ظهر رشيدوف في أعلى التلة، وقد أصابه بعض الخبل بتأثير الليلة الماضية. بدا وكأنه واقع تحت تأثير مخدّر قوي. شهر العميد مسدّسه، وصوّب نحوه: أمامك ساعة واحدة؛ لتعيد القبر إلى حاله، أو أعدمك ميدانياً هنا أمام أهل

القرية. حاول الرقيب أن يتفوّه ببعض الكلمات، لكن العميد أمره بالصمت وإعادة الجمجمتين إلى مكانهما، وإعادة بناء ما تهدم من القبر.

حمل الرقيب رشيد الجمجمتين في كيس أسود كبير قام المرافق بإحضاره من السيارة، ومشى متثاقلاً قاصداً مدفن آل قرطباوي عند أطراف القرية. عندما التقت عيناه بعيني العميد همس له النمراوي بأن حساباً عسيراً ينتظره في سجن تدمر الصحراوي عندما يرسله مخفوراً إلى دمشق. لم يكترث رشيدوف بتهديد العميد. مشى متأنياً. لا، بل أن خاطر أغنية مر بباله، جعل مزاجه مرحاً. لم يغن منذ زمن. شعر أن الجو على غرائبيته يمكن أن يحرّر صوته الحبيس في قفص. كان صوته متعباً بتأثير شراب الفودكا في الليلة الماضية. لم يكمل الجملة الغنائية من أغنية يا نجمة الصبح. مضى مبتعداً.

دخل المدفن ثانية. بدا أن إضاءة النهار عملت منه شيئاً مختلفاً عن الليل. لاحظ أن الباب الرئيسي للقبر لم يطله تخريب. كانت رائحة بيضة الأفعى ما تزال تعبق بالمكان. وضع يده اليسرى على أنفه، ودخل. كانت البلاطة قد أزيحت بالفعل، وظهرت فتحة كبيرة مكانها. وقف متبرّماً حواليها، وأدهشه أن القبر من الداخل يحوي مرآة قد تلفت تقريباً، وتشقق سطحها، واسودّ بفعل الرطوبة وانعدام الهواء. تناولها وحدّق فيها. راعه أن يكتشف أن الانسدال في الجفن الأيسر قد زاد قليلاً. صفن قليلاً. وضع الجمجمتين مكانهما، وبدا أنه خجل من فعلته. قدم لهما اعتذاراً بصوت مسموع، وتذرّع بشراب الفودكا الذي نال منه البارحة. أزاح البلاطة الثقيلة بيديه، وثبتها في مكانها. اختفت الفتحة السوداء وبداخلها الجمجمتان. قبل أن ينفض يديه كلتيهما من تراب القبر، شعر بماسورة باردة تدخل في صدغه. لم يلتفت للوراء. أغمض عينيه، وهو يسمع فحيح كريستينا من وراء ظهره: - أستطيع أن أقتلك الآن. لن أفعل. سأتركك تتعذّب في جحيم الدنيا. لن تهنأ في حياتك، أيها المخبول. امض في طريقك، ولا تلتفت للوراء.

خرج الرقيب رشيد مسرعاً. لم يلحق به حتى ظله. انكمش على رماده من الخوف. شعر بذلك. أحسّ من خلال فتحة القبر بهواء خفيف يبقى وراءه. لمس كتفيه من فوق. أدرك ببصيرة الواثق أن الظل بقي في مكانه مثل روح مبشرة بالعذاب. وأنه لن يغادر سريرة الدنيا الفانية أبداً.

شعر بألم شديد في عينه اليسرى. وضع يده على خدر في المثلث.

تشهى أن يملك مشرطاً حاداً؛ لينتزعها من مسكنها، ويكمل طريقه. صعد في الاتجاه الخاطئ. كاد أن يصل إلى الدير. وقف عند بوابته الطولانية، وشعر باليأس. عاد أدراجه باتجاه الثكنة. لم يكن هناك سوى بضعة ظلال متبقية من الجمهرة. كان المطر قد غسل كل شيء.

انكفأ على نفسه، ومضى بخطوات بطيئة. كان يجر نفسه بالاتجاه الخاطئ. شعر بثقل في كيانه لم يكن يشعر به من قبل. زارته سهى، وهو يسير واقفاً. نظر إلى الأعلى، فوجد غيمة تتشكّل قريبة من حروف اسمها. مشى وراءها متقداً بأفكار فوضوية. وجد نفسه يسير في أعلى الجرود. كانت الغيمة قد تفككت. ذرتها رياح قوية. انتقلت إلى أمكنة أخرى على هيئة طلاسم متبقية من روحه المفككة. لم يشعر بضيق. كان قلبه مفتوحاً على مصراعيه، وليس هناك أقفال للحب في أوردته المغلقة، يمكن تعليقها بالأطنان، كما يحدث على جسور العشاق في المدن الحديثة. أراد أن يزور مدينة بيروت سيراً على الأقدام. ربما تحزر من الضيق الشديد الذي يلتهمه. ربما فقد عينه اليسرى في الطريق، واستراح منها. كان يقينه معذباً. لم يكن يملك ليرة واحدة تعينه على إكمال الطريق.

مشى وحيداً، ومشت الأفكار معه على شاكلة مسنّنات مفترسة. توافدت الظنون بالأرتال إلى رأسه بعد تهديد النمراوي، فآثر أن يبتعد. ربما وصل مشياً إلى حافة مكشوفة في نهاية العالم، ليس فيها تبغ وأساطير وخلود ونعال متشقّقة، وبنى لنفسه كوخاً وقبراً متلازمين إلى حين أن يقرر جسده أن يتفسخ ويختفي في دارة الظنون التي تزوره أحياناً، وتفتح أبوابها له. أليس هذا ما ينشده الآن؛ ليستريح من العذاب الذي لحق به بعد نبشه للقبرين؟! كان يدرك أن ثمة تحولات كبيرة تضربه في أعماقه، وأن السيوف البتّارة التي يكدّسها في النواة المتشقّقة بداخله صارت تتهيأ للخروج، وما يلزمها لا يتعدى مرور بعض الوقت بين تلك المسنّنات العجيبة. صرخ بأعلى صوته. لم يجبه حتى الصدى. بقي متمسكاً بظله الجبان في القبر. لم يلحق به. لو كان على حق لتمسك به، وظل معه.

لم يكن ممكناً الابتعاد أكثر من ذلك في هذه الجرود المعلقة بين السماء والأرض. شعر بدوار ثقيل في رأسه. جلس على الأرض متكوّماً وراء صخرة. نظر إلى الأعلى، فوجدها شاهقة أكثر مما ينبغي. ظن أن بوسعها أن تؤمّن له ملجأ بعض الوقت من العاصفة التي تهدّد الأجواء من حوله، وتمدّ له بألسنة جارحة.

أصاخ السمع. الدرس الأول الذي يتعلّمه كل جندي وافد حديثاً للجيش. شنف أذنيه. بحث عن لغة سقيمة ومؤذية. ليس هناك شتائم تليق بهذه الجرود. ربما كان حرياً به أن يشتم العميد النمراوي الذي أرغمه على الهرب. طالما أبدى إعجابه بهذه الشخصيات التي تملك طموحات في الانشقاق عن المجتمعات التي تتكوّن فيها. كان النمراوي من فصيلة الرجال الذين يملكون أحلاماً كبيرة في الانشقاق، وتكوين ممالك جديدة إيماناً بفكرة البقاء للأقوى والأفضل، لكن الأدغال التي من حوله ليست أدغالاً عميقة يمكن أن تحميه وتؤمن له مصدات وقائية للأفكار التي يحملها، ويدافع عنها. في لحظة يمكنه أن يشعر بالعزل لا يملك بندقية واحدة للصيد. هذه بلاد بلا أدغال، ولكنها تتمتع بكل مقومات شريعة الغاب.

نزل إلى الأرض بجسمه. ألصق أذنه بالتراب. الدرس الثاني في تعقّب الأصوات البعيدة. بقي خمس دقائق. كان يقرأ اختلاجات الأرض. حمم الهمس المخبوء منذ عشرات السنين. أحاديث مَن مروا خفية، وأقاموا علاقات في هذه البقعة الجغرافية غير المأهولة. دبيب النمل. صرخات الوحوش. ابتكار الطيور الكاسرة لمعلقات جديدة في القنص حين تخمش بأظافرها سطح البرية الخشن، وهي تعلو وتنخفض وتتناسل بشكل أخاذ.

لم يكن هناك ما يشي بخطر قريب. ليس أكثر من شيهم يتصارع مع حية رقطاء، ويتجزع سمّها. يحلّل مكونات البروتين العالي الذي يتشكّل منه. يغيب عن الوعي لأربعين ثانية. ويصحو ثانية؛ لينقض عليها، ويكسر رقبتها. الحيوان الوحيد الذي يحلّل السم، ولا يتأثر به. ليس هناك مخلوق آخر سواه يمكنه فعل ذلك. يملك اسمين آخرين: النيص والدلدل. حيوان من فصيلة الروامس يصحو ليلاً، وينام نهاراً. يفضّل أن يتناول طعامه في الصبح. وفي أثناء التزاوج، يتبوّل الشيهم على الأنثى بسرعة عالية.

استدرج هذه المعلومات، وهو يصيخ السمع للمعركة التي تنشب في هذه اللحظات، ولم يفكر سوى بالتبول. كان قد نسي ذلك. شعر فجاة بامتلاء في مثانته. أرخى بنطاله، وتبول على شجرة بلان متيبسة. خطر له أن يتبع بعينه تلك القطرة الصفراء التي علقت بالأشواك، ويتناولها، ويضعها في عينه. بدا الأمر مستحيلاً لأن الدرس الثالث الذي تعلّمه: لا تبق في المكان نفسه أكثر من دقيقتين بعد التبول. ضحك. راق له هذا الدرس. آثر أن يمشي بالفعل. الأشواك التي تتدحرج أمامه تخفي شراً وحسداً وعيناً ثاقبة، وقد يطاله أذى غير متوقع في هذا الخلاء الموحش. زفر بعمق،

ومشى نازلاً الجرود. بدا في الجهة الأخرى من الوادي مثل طلاّع مبتدئ. كان التعب قد نال منه، وصار يجر ساقيه والريح تعانده، وتبقي عليه في مكانه. لم يكن يعرف وجهته. كان يتبع حدسه. ليس هناك ما يمكن أن يفيده. كل الأماكن التي عبرها من قبل لم تقده من هذه الجرود. التكلف الذي يبديه في فهم العوائق لا تتناسب مع خبرته كرقيب مجند فار من الثكنة إثر صدور برقية تعقّب وملاحقة بحقّه. لم يظهر في اللحظة المناسبة. لن يفيده أنه أعاد الجمجمتين إلى القبر، إن لم تصدر بطاقة كف بحث من هيئة الأركان في دمشق.

لا يعرف من أين نبق هذا الكائن الغامض أمامه فجأة، وهو يحمل شوالاً أزرق من الخيش يصدر أصواتاً غريبة. حدّث نفسه قائلاً: - ألم أقل لك أن تغادر بعد دقيقتين من التبول؟! ألم يكن هذا هو الدرس الأهم الذي يجب أن تتعلمه في الجندية المكلف بها منذ أكثر من عامين؟! هاتان الدقيقتان كانتا كافيتين؛ لتحدث هذا الافتراق مع هذا الكائن اللزج.

حاول الرقيب رشيد أن يتفاداه، لكن الكائن الغامض اصطدم به عمداً، وأوقفه. حدّق به مطوّلاً، وتفرّس في ملامحه الغامقة. بدا له مثل نمر أسود وافد من خليج البنغال. ربما جاء من هناك مع أفواج المتطوعين الباكستانيين الذين توافدوا على المنظمات الفلسطينية بأعداد كبيرة، لا لشيء إلا للبحث عن الرزق. لم يكن هناك ما يمنع انضمامهم، فقد جاؤوا مع الشعارات، وتلاشوا مع الشعارات. يكمن المأزق في تلك الوجوه التي لا تملك ملامح لتقول شيئاً. ثمة تعلق أكبر بالفراغ. هذا ما كان يرعبهم في قدومهم؛ لأنهم سينتقلون إلى فراغ محتمل آخر؛ ليكملوا ما بدؤوه هنا. تمتم الكائن الغامض بكلمات عربية مكسّرة. أشار إلى هويته على الفور. سأل الرقيب عن منطقة كوساية. لم يكن ممكناً تحديد الاتجاه الغارق في إشارات غير ممكنة الحدوث إلا في حالات التيه. لفت انتباهه الشوال الأزرق، فبادر إلى سؤاله عن حمولته. قال نمر البنغال: - لدينا سكاكين. لدينا مقصات. لم يتعجّب الرقيب رشيد كثيراً، فقد عرف من شكل الكيس أنه لا يحمل سوى البضاعة الباكستانية الأشهر في العالم. السكاكين التي ستلعب عند بعض الشعوب دوراً حاسماً في الدخول إلى تصفيات القرن الواحد والعشرين.

نظرية الانتقال من الفراغ إلى الفراغ ما تزال تحصد في طريقها ضحايا كثراً. ربما شكّلت التباساً عند البعض ممّن يتتبعون قصص البشر ودرجات التطور في العادات من خلال علم الأنثروبولوجيا، لكن؛ من المؤكد أن

النظرية التي يطلقها وهو في طريقه لأشهر عاصمة عربية ليست خالية من بعض المفاهيم الصحيحة رغم ميلها للأسطورة البليدة التي لا يمكن هضمها في عشر مجلدات، أو في عشر كلمات، طالما أنها تهندس الفراغ بمسميات مختلفة.

تعلّم الرقيب رشيد ألا يقف كثيراً مع غرباء. إن عرف ما في كيسه، قد يأمن شراً ينتظره في نهاية الطريق، وإن لم يفعل، فقد ينتظره الشر دائماً في نهاية كل طريق. ليس مستغرباً أنه تخلى عن قشرة رقيقة تفصل بين حزنه وفرحه من أجل أن يصل إلى مدينة ستتهاوى في برميل متفجر، بوصفها مختبراً صغيراً لكتابة الأسماء على حبات الأرز. لم يتصوّر الرقيب رشيد في حياته أن تضمحل الأسماء التي وجدها الأهل والأصحاب لأبنائهم إلى مستوى كتابتها على حبة الأرز الواحدة.

الفصل العاشر: شامة على رقبة الطائر تصرخ من الألم

مرّت شهور على حادثة الجمجمتين وقنينة الفودكا الروسية المغشوشة. اختفى العميد النمراوي بعد رفضه تنفيذ أوامر وردته من دمشق بالانسحاب من بيروت مع كتيبته، وظل مصيره غامضاً ومعلقاً. تردد أنه كان يتصيد الدبابات الإسرائيلية بنفسه. رمى ست عشرة دبابة بقاذف واحد. قيل إنه جزّار الدبابات.

لم يكن مستبعداً أن يقوم العميد بمثل هذه الأعمال. يعرف الرقيب رشيد عثمان أن النمراوي مؤهّل لأكثر من ذلك. طموحه كان أكبر من أن يقود كتيبة. ربما كان يمهّد لغزو الشمس. كان يضحك ساخراً عندما يردّد ذلك على مسامع جنوده، وقد أرخى لحيته: "- أعرف أننا لن نحرر حقلاً للفول الأخضر، لكننا سنمضي في طريقنا نحو الشمس، ونعبُده، ولن نرضى بأقل من أكلة فول مقلّى بزيت الزيتون والكزبرة والثوم.

ضحك الرقيب رشيد عثمان في حضرة أكلة الفول التي تعده بها سهى دجه براييل. اهتزّ النمش الخفيف على وجهه. اهتزّت الشامة التي تزيّن رقبة سهى. كل من يملك شامة أو نمشاً في أي مكان من جسمه، ويسمع كلام العميد النمراوي سوف يشعر بحكاك. لا ينتظر أن يكشط هذا الجسم الغريب من تلقاء نفسه. سيتحرك كل شيء من مكانه، ويثور مثل بركان صغير إلا شامة سهى. ستبقى في رقبتها؛ لتشهد على حلم صار يعاود رشيدوف في نومه ويقظته منذ أن خرجوا من بيروت جماعياً. لقد تجهّم وجه الولد، وأصبح مثل قطعة من الجليد الأبكم. عاد إلى بيته محملاً بالأوزان والحمم والبراكين. صار مساحة للتجريب البارد بعكس ما كان متوقعاً. لم يشعر بألفة مع حياته الجديدة. ظل يحاول إعادة إحياء الأنوار التي حملها معه في قلبه وروحه. كان الحقل ضيقاً. لم يكن هناك مزروعات للري. جف الماء، وغيّرت الينابيع من أدراجها. سقط الملح في كل شيء. ربما تسقط كل شيء. صار يلزم الجلد البشري كميات أكبر؛ ليعاد سلخها وإعادة توليدها من جديد حتى لا تفسد. كبرت مساحة التجريب في كتابة الأسماء. ظهر أن البرج الثاني من الحكاية يبدأ من بوابة، ليست بعيدة عنه. كل الحكايات التي تُنسج من حول هذه الأسماء قد تتعدى حبات الأرز إلى

ما هو أكبر بقليل منها.

سقطت الرتبة عن كتف رشيد عثمان...

كبرت الخطوط الزرق حواليه. لم يكن يراها بحدقة واسعة. لم تدلّل عليها حركة النجوم. الارتخاء في الجفن الأيسر ابتلع عينه. معاينات طبيب العيون اليهودي في دمشق موسى حاصباني لم تفده بشيء. فشل بتشخيص الحالة نفسها. لكنه أدرك شيئاً من غرابة الأطوار التي يمر فيها رشيد. قال إن التبدلات النفسية التي مر بها من قبل قد تكون مسؤولة عن هذا الانسدال الشمعي. لم يفهم شيئاً من التشخيص. شكّك بوجود مثل هذا الانسدال في قواميس الأطباء. سأل طبيباً عينياً آخر عن هذا الانسدال الشمعي في جفن العين. أنكر صراحة وجود مثل هذه الآفة. هزّ رأسه بعد أن علم مَن هو صاحب التشخيص. قال: "- اليهود لديهم أحكامهم الخاصة بهم. أعتقد أنه شلل يضرب أعصاب الجفن ببطء شديد غير ملحوظ، يتراكم في حجيرات دقيقة مع مرور الوقت.

لم يعد رشيد عثمان يشغل باله كثيراً بآفة عينه اليسرى. نسي ما قالته الجدة الشركسية عن سهى دجه برابيل. ليس مؤكداً أنها ستقبل به إن شاهدته بعين واحدة. مزاورة طيفها الفتان لا تغني في الإجابة عن سؤال صعب. ظل يفضل أن تزوره بلغة البرق والرعد والريش الذي يملأ المخدات. أن يبحث عنها بين شقوق الطلاء القديم على شبابيك البيوت التي لامستها بأصابعها حين كانت تتنهد مثل مراهقة، وتفكر بدراسة الأدب الإنكليزي في جامعة دمشق. لن يقترب رشيد من سؤالها عن شيء. سيقضي أوقاته بالمرور من كل الأمكنة التي عبرت منها. سيمر من هناك، ويقلد طيوفها المتعددة الأرواح. سيقلّد حيواتها السابقة بكامل التفاصيل التي ترغم على تتبعها، كأنها لم تغادر الأمكنة التي أحبتها، وعاشت وجع الحنين إليها بشكل دائم.

حمل خريطة سهى دجه برابيل، ومشى في شوارع دمشق. الأمكنة التي وقفت عندها؛ لتشتري منها ملابسها، أو لتشعر بائع البوظة الشهير في حي الصالحية بأنوثتها. تسمّر أمامها، ورسم لها صورة مقزبة. اقترب من تفاصيل ابتسامتها وضحكها ومشيتها المتعثرة حين تشعر بالخجل والحياء من مراقبة متفحصة. شعر بالدفء، وهو يتنفّس كل شيء حولها. أحس أنه مكتفٍ بأوسمتها العاطفية الحيّة. بدا عليه أنه متوازن، ويسير في طريق صعب وجميل. صار يلجأ إلى حيلة في البحث عنها في الأمكنة التي يعتقد

أنها كانت تمر فيها بأن يدرّب عينه اليسرى على النظر في هذه الطيوف المختفية وراء الذكريات. كان يحركها بأصابعه، فيفتح الجفنين مثل مغلاق عدسة الكاميرا. بدأ يشعر بمتعة ولذة تعادل وجود أنثى في حياته. ربما أراد أن يكون مخلصاً للجالسة داخل عينه اليسرى أكثر مما كان يبحث عن طيف ابنة دجه براييل. هذا الأمر لم يتأكد. هو ينقّل سيناميس وسهى بين مكانين مطلين على روح شاردة، ويعي أن آفة عينه لن تبرد بسهولة، فقد فشل أبرع أطباء دمشق في تشخيصها، ولم يقدموا له شيئاً يغني تساؤلاته حول مصير عينه اليسرى. قال طبيب عجوز من وراء طاولته: "- لا يجب أن تقلق على العين الثانية. كل عين لها آلية مختلفة ومستقلة عن الأخرى. لا تقلق. لم يكن رشيد مهتماً بتشخيصات الأطباء. رأى أن تدريب جفن عينه المنسدل شمعياً على رؤية سهى من حيوات سابقة قد يغير من آلية الحركة فيه. صار يعرف كل شيء عبرته فيزيائياً من سنوات مراهقتها حتى دراستها للأدب الإنكليزي في جامعة دمشق. توقّف عند تحرّش الأستاذ الجامعي بها. لم يرق له هذا الأستاذ. كرهه دون أن يراه. قزر في أعماقه أن يكون دخيلاً على المشاهد التي سبقته حين كان يؤدي خدمته الإلزامية وراء الحدود، ويعيش بين أحضان كريستينا وكؤوس الفودكا المغشوشة من دون التزامات أو إيحاءات بأي التزامات. قرر أن يعرف عنوان مسكنه وعاداته اليومية والشوارع التي يمر فيها. لم يكن صعباً على عاطل عن العمل بعين واحدة أن يجده. لم يفسر لنفسه اهتمامه الزائد به. كان يعرف بوجود معجبين آخرين بها ربما يفوقونه مكانة وأهمية، لكن هذا الأستاذ احتل اهتماماته حتى صار يعرف عنه أشياء كثيرة. لو بقيت الجدة المرحة سيناميس على قيد الحياة كان سيخبرها بأدق التفاصيل. من المؤكد كانت ستغبط حفيدها على إبداء اهتمامه بسهى دجه براييل، أما هذا الأستاذ؛ فكانت ستلعنه، وتحطّ من شأنه.

ستقول إنه مسؤول عن تخريب التعليم الجامعي. وإنه متزوج في الخفاء من خادمة إثيوبية. قد تختلق قصصاً كثيرة من حوله. لكن شيئاً من هذا لن يحدث. ماتت الجدة سيناميس قبل قدومه، وبقي رشيد وحده مع آفة في عينه اليسرى، لا يعرف متى يشفى منها. لم تكن كلية الآداب بعيدة عن المقهى. جلوسه الدائم فيه أمّن له أن يجمع كل ما يريده عن الأستاذ في الشهور الماضية. الساعة التي يطل فيها معظم أيام الأسبوع. الباركينغ الخاص بسيارته. حارس البوابة الذي يسرع؛ ليفتح باب السيارة. بائع الصحف في الكشك القريب حين يناوله جريدة تشرين دون أن يشكره. كان الأستاذ يتصرف مثل طاووس. لا أحد ينازعه على سلطته

دون علمه هنا سوى رشيد الذي يجيء من تجربة مختلفة في الحياة. الفودكا الروسية المغشوشة والفلاديميري الحارق لأوراق الكتب، وصانع اللهب الأزرق الأسطوري وأعشاب القبور المفتوحة التي تهمس بأشياء وضيعة عن الموت. كأن ليس هناك حياة إلا فيما تتيحه تلك المصادفات التي يمكن أن تضع شخصين على سكة واحدة. يتقابلان ويتقاتلان في كل شيء دون أن يعرف أحدهما أن هناك مَن يترصده عن سابق تصوّر وتصميم، فيما هو لا يعرف شيئاً عن هذا الترصّد وهذا التقاتل. المُترصِّد غالباً سيغرق في أحزان العشق، والمرصود لن يعرف شيئاً من هذه الهموم. يعرف أن سهى دجه برابيل المقصودة بهذا العراك الخفي يمكن أن تكون زوجة المستقبل. أما هذا العاشق البعيد؛ فلا أحد يهتم به، أو بشجونه. ألم يقل السابقون في علومهم المستقلة إن من الجمال أن تترك شيئاً من الحنين يوجعك في كل مكان تذهب إليه؟!

في لحظة، سيعاف رشيد عثمان كل شيء. كان يبحث عن آفة الحنين، ويدرك أن مجيئه اليومي إلى بوابة الجامعة قد لا يكون شيئاً حكيماً. لكنه صار يشعر أن عملية المراقبة اليومية للأستاذ الجامعي صارت تحسن من آلية الجفن المتسدل في عينه اليسرى. الوقوف أمام المرآة في الصبح وفي المساء عملية مشبعة للأنا. ليس الانسحاق الكلي للأنا في داخل هذا السطح الأملس إلا تعبيراً عن الإشباع لها. هذا ما تفسره عملية التحديق التي يقوم بها من أجل معاينة الجفن المشلول. الآفة التي غيّرت من معنى وجوده، وكادت أن تغيّر طريقة تفكيره ومعاينته للظواهر التي تسرح أمامه. كأن يمضي إلى الرمل؛ ليكتب اسم سهى دجه برابيل، ثم يترك الريح الخريفية؛ لتهب عليه، وتمسحه، كأنه لم يكن. كان ينقل عنها حين تزوره طيوفها أن الخريف ضروري في أعماق كل منّا حتى يتساقط الأشخاص الذين علقوا بأرواحنا في كل دورة حياة. لم يوافق على ادعاء طيفها المبتسم في آخر الزيارات قبل أن تنقطع نهائياً. شرب كأس الفلاديميري، وأغمض عينيه كلتيهما. أراد أن يشعر بالفراق مع الطيف. لم يكن ذلك ممكناً دون قطع الحبل الموصل بالحنين. لن يبحث عن اللهب الأسطوري الأزرق بعد اليوم في منادماته الروحية والعاطفية.

لم يعد رشيد عثمان يكترث لأمر الأستاذ الجامعي. صار يراه رجلاً عادياً جداً. رجلاً منسجماً مع متطلّبات الحياة الجامعية التي يلهث وراءها، وهو مقيد بها حتى العظم، وتكاد الأغلال تفلّ عظامه. كان يعرف أن سهى دجه برابيل لن تقبل به زوجاً. وهو صار يبحث عن نشاط ملحوظ في

جفنه المنسدل. الإغلاق الميكانيكي للعين اليسرى. الابتسامة الفائضة أمام المرآة. الشعور بالانقلاب العاطفي الكبير الذي ينتظره مع رغبات قوية بالتوقّف عن شراب الفودكا، والانتقال إلى مرتبات أعلى في فهم الأنا الجديدة الطالعة من المرآة.

عاد إلى سهى

عاد مخفوراً إلى رقة صاحبة الطيف في شوارع دمشق

بموجب بطاقة البحث التي ما تزال سارية المفعول

بحث عن رنات كعبها العالي في الأماكن التي كانت تعبر منها

تحسّس بأصابعه أجمل ضحكة، يمكن أن تعلق

بواجهة المحلات الدمشقية حين كانت تقف قبالتها بصحبة رفيقاتها

وهي تتلذّذ بأكل البوظة

تحسّس عينه اليسرى، وهو يقف أمام الواجهات نفسها

ليس هناك انسدال شمعي في الجفن

صار يخرج من المرآة كل يوم، ويعود؛ لينام فيها

للانتهاء من وصلات الحنين الموجعة

الفصل الحادي عشر: الخريف بعيداً عن الأوراق

جاء الخريف مبكراً. صارت الأوراق الصفراء تهتزّ بفعل الرياح التي تهب عليها. وتصارع من أجل التعلق بالأشجار أطول فترة ممكنة. لم يكن ممكناً تفسير سلوكها. ليس هناك إمكانية لذلك. لكن العين المدرّبة التي يملكها رشيد عثمان تقول شيئاً مختلفاً. نظر إلى الأعلى مطولاً. كانت الأوراق الصفراء ترتعش باضطراد. وكانت الأشجار التي تقع في مرمى النظر تقدّم له تفسيرات غامضة عن تبدلات حيوية في الوظيفة الملقاة عليها. لم يكن مهماً أن يبدل فصل الخريف من عباءته حتى تتساقط الأوراق التي حملتها الأشجار، وارتضت بها في دورة حياة كاملة. الخفّة في التسلّل إلى الهشيم بعد انزياحها من الأعلى إلى الأسفل يقدم صورة شاعرية للخريف، لم يكن ممكناً التقليل من أهميتها، لو لم تكن الحياة بحاجة ماسة إليها للتقليل من الذنوب التي يقترفها الناس وقت اصطياد الحنين.

أقول لكِ وأنا أدرس حركة سقوط الأوراق في فصل الخريف إنني أشتاق للطيف الذي يزورني بين الأوراق، وأصارع من أجل التشبّث به. أعرف أن التعلق بأكمام الأشجار يكاد يكون مستحيلاً؛ لأنه يخالف دورة الحياة. أنت لا تعدينني بشيء. أنت لا تلزمك نبوءة الجدة سيناميس. أعرف أنني لن أراك أمامي، كما يفترض بعاشق انخطف لبّه، وتغيّر لونه، واصفرّ مثل أوراق الخريف، وهو يصارع من أجل البقاء معلقاً أطول فترة ممكنة قبل أن يسقط على الأرض. أرأيت، يا سهى دجه براييل؟! أستطيع أن أفسّر لك لماذا تهتزّ الأوراق، وتصارع من أجل البقاء في الأعلى قبل أن تدوسها أقدام المارة في الليالي الباردة.

جاء الخريف مبكراً؛ لينعش دورة الحياة الجديدة قبل انطفاء آخر الشمعات التي اشتراها رشيد عثمان. لن يكتب أكثر من النصوص التي علقها باسمك في عالم افتراضي مدور، ويقوم على أسطورة إعادة الخلق والفك والتركيب. كل ما قيل من قبل كان لك. لم يكن لأحد غيرك. أنت ستخفّفين من غضبك حين تلتقين به عند درج مقهى النوفرة. ستتعثرين أمامه، وتبتسمين. لن يكمل الحلم الذي بدأه من دون هذا الفعل. طيفك هو مَن انقلب به، وأعاد له عينه اليسرى بعد أن فشل جفنه في التوقّف عن

الانسدال الشمعي. الرؤية التي تقوم على إعادة تفصيص حكاية الأوراق، وهي تسقط عن الأشجار أتاحت له أن يعيش في الأعلى، لأنك تطلّين عليه من هناك دائماً. أقول لك إنني أحبك، ولم أرك إلا على شاكلة طيوف مسترسلة في التبدل والتكور. أأنا قطّ مدلّل بشاربين مقصوصين يبحث عن حضن دافئ، يمكنه إعادة تلوين الأوراق الصفراء بحرارة الجسم الثابتة التي لا تتبدّل في كهف أو مغارة. الوبر الذي يخفي كل هذه الأسرار لا يعلق إلا في أصابعك. يرفض أن يتنازل عن مواء صاحبه. يخدش بمرارة في ظهر الأفق حين لا تكونين هناك. ليس البياض السهل الذي يرتفع معدله في الدم شبيهاً بالكريات البيض. لا يكمن الدفاع عن حمى الجسد بها. هي تتشكّل من معدن الأسطورة، ولا تترك من الرماد إلا ما تسقطه الأشجار على قارعة الطريق.

لن يكون بوسع الجدة سينا ميس أن تغضّ الطرف، وهي تستريح في نومة طويلة. سيبدو صعباً عليها حين تعود من وراء الجبال القصية أن تصدق أنك قد اقترنت بمهندس مدني، وسافرت بعيداً. سافرت وراء الغيوم. لن تعرف اسم البلد الذي غادرت إليه. لن تهتم كثيراً بلفظه. ستقول أعرفه: هواؤه يابس، ولا يمكن لسهى أن تعيش فيه، وستعود. كانت تعتقد أن قرية كفر كما في الجليل الفلسطيني الأعلى هي نهاية العالم. جاء أجدادها الشابسوغ من القوقاز، وأقاموا في قريتين فلسطينيتين. عاشت هناك حتى لحظة الخروج الكبير، وانتقلت للعيش في حي القنوات الدمشقي مع عائلتها الشركسية الكبيرة.

لم تغيّر نظرتها إلى قرية كفر كما. كانت أجمل بقعة يمكن أن تقع عيناها عليها. لم ترد أن تصدق يوماً أن هناك أماكن غيرها تخطف الأبصار. لم تذهب في حياتها إلى البحر الذي تغنت به كثيراً. ظلت تعتقد أن القنوات هي امتداد للبحر الذي سمعت عنه، وأن مياهها المالحة معجزة. لم تعرف سينا ميس أن سهى لن تعود إلا في زيارات سريعة من عام لعام. وأنها رُزقت بصبي وبنت. علي وياسمين. قد لا يتسنّى لها أن تأتي لزيارة قبرها أبداً.

أقول لك لماذا تعاند الأوراق في الخريف السقوط من الأعلى. لقد جربت مرة، وأنا أبحث عن طيفك في شوارع دمشق القديمة أن أسترد شيئاً من نزاهتي في تفسير ميلي العاطفي نحوك، بالرغم من أنني لم أرك إلا وأنت صغيرة. كل ما فعلته هو التوكؤ على عصا الجدة في توصيفها لك في المنامات التي عبرت منها نحو تفسير سقوط الأوراق الصفراء في

الملاحم الكبيرة. عرفت أنني لا أسترد شيئاً من قدرتي على إغلاق وفتح جفني المنسدل للرؤية. وعرفت أكثر أنني أصعد نحو سموات طابقية؛ لتفحص تلك الروح المدهشة للجدة سيناميس حين وصفتك بلغة أجدادها الصعبة. كانت تضع سحر اللغة في خلودك. أنت في الأعلى. الأوراق تسقط على الأرض. هذا كنز في تفسير الطبيعة. يمكنك أن تنضمي لدورة الفصول في انتظاري عند الدرج الأسطوري حتى تعيدي رسم البياض السهل في لوحة، أعلّقها بأظافري في الجبال التي لا تموت.

سأمرّ في الغابات التي تتجنّبين المرور منها حتى أبادل الخريف كل الأوراق التي أنوي أن أطيرها باسمك. ستفرح الجدة سيناميس في قبرها. سيبدو هذا الفصل المتشنّج أكثر مرحاً حين نريد منه أن يكون لطيفاً وحنوناً ودافئاً، بعكس الأوراق التي نطيرها بالنفخ عليها من أسفل.

الفصل الثاني عشر: عينان مغمضتان باتساع

تهب من جهة الشرق رياح السموم. الرياح التي تبدأ من الوعورة النفسية أولاً، وتجيء بنتائج مقلقة. طالما هبت وغيرت من الأسرار التي تقوم عليها حياة رشيد عثمان. ليست حكايته وحده. لكن الرياح التي جاءت بأبيه من البادية؛ ليحرق الخطوط الزرق بسيخ محمر صارت تعيد رسم خريطة هذا الشرق. هي نفس الرياح التي زاحت خطاه باتجاه تلال الأرملة السوداء. كأن طريق الأب الصحراوي وعادة الكي تختزل بطريقة فذة ركاميات الشرق الملعون. صارت الحكاية تقوم على تضاد مذهل. لم تعد الأسماء الكبيرة التي تُنقش على منارات عملاقة بوصلة في حياة أهل المنطقة. بدا أن الرياح أكلت كل شيء على مدى خمسين سنة. نقلت السموم إلى أوردة المتقاتلين على سماد ومخلّفات أمير البادية وناظم حياة أبي رشيد. ليس صانع الخطوط الزرق إلا رجلاً أمياً، يجيد اللعب بمصائر الناس، ويعرف كيف يتفنن بإذلالهم، وتحويلهم إلى عبيد له. خطأ أزرق، ويعيد صاحبه إلى قفص العبودية. آخر الدواء الكي. قول مأثور، استطاع أبو حواس أن يتلاعب به، ويعيد تفسيره كما يريد بانتظار أن تهب العاصفة الكبيرة، وتعيد تغيير تاريخ المنطقة، وكأن تاريخ أبو رشيد لا يكفي أن يختزل لعبة أبو حواس في البادية المشؤومة.

عاد أبو رشيد في يوم بارد. كان ينتقي أيام الكي في فصل الشتاء. حرارة السيخ وحرارة فصل الصيف لا يجب أن يلتقيا معاً، وإلا أحالا جلده المترهل إلى ساحة حمراء قانية. عاد في آخر الليل متعباً ومتجهّماً. كانت الشوارع قد فرغت تماماً من المارة. لم يعد هناك سوى أشباح متآكلة، تتمدد على الحيطان في الحارات شبه المعتمة، وبعض القطط والكلاب التي تراقب بحذر. ظهر أبو رشيد في نهاية الشارع. صار قريباً من باب البيت. كان يحمل كيساً صغيراً بيده اليمنى. لا يمكن التكهّن بحمولته. ربما كان مسحوق الكشكة الذي يحضره معه من البادية في كل مرة يذهب فيها للتداوي بالكي. وصل عند الباب. لم يتمكّن من إخراج المفتاح من جيبه. كان منهكاً ومعلّقاً بين سماوات قصية ولجوجة. جلس على الأرض. ربما شعر بتقلّص غريب في عضلة القلب. كان صدره يخفق بشدة. ارتعاش في

كامل الجسم يمنعه من التنفس، لكنه سيكمل المهمة التي ذهب من أجلها عند أبي حواس. لن تذهب هذه الخطوط الزرق عبثاً. سيكمل حريق الموسم. ربما لا يعيش حتى الموسم القادم وتضيع تفسيرات أمير البادية الأمي والامتيازات المعنوية التي تلي حريق الجسد. سيقف على رأس صخرة عالية بعد أن ينتهي من المهمة الزرقاء، ويعيد تشكيل مكثّفات الحكاية التي تنشأ بعد الضحكة المخبولة. هذا الشعور المفاجئ بالخبل الذي تبع تنفيذ تعاليم أبو حواس هو أصل انتظام الحريق. ليس أكثر من ساعتين، ويقضي. لن يعود هناك أبو رشيد، ولن يبقى من جسمه إلا تلك العلامات السوداء تذروها الريح في الأعالي.

شعر بانعتاق في صدره. انزاحت البلاطة الثقيلة التي جثمت على صدره. كانت بقعة سوداء من حريق ماض قد توسعت قليلاً على حساب المعنى العاطفي الذي نسيه قلبه منذ مدة طويلة. تحامل على نفسه، ودخل البيت. وجد نفسه أمام شجرة التوت التي تنمو بسرعة وجهاً لوجه. كلّمها، وفي عينيه لمعة جنون: - أتذكّر جيداً حين ماتت سينااميس شعرت بزهو غير عادي. اليوم تعتقدين أن دوري قد حان.

دخل المطبخ، وأحضر بابور الكاز الكبير. أوقده. قويت ناره خلال خمس دقائق. كان رشيد عثمان محتمياً بأوراق شجرة التوت، ويراقب أباه من فوق. بدا كأنه يكلّم نفسه عن سنوات مضت، لم يكن موجوداً فيها. لم يشهد على وقوع أحداث فيها: "- النمل ينخر حياتنا. ربما بدأ يفعل ذلك من تحت لفوق. لم يكن هناك طريقة للتخلص من النخر المنظم إلا بالارتفاع لفوق ومخالفة قوانين الجاذبية الأرضية قبل أن يبتلعنا الثقب الأسود الذي فتحناه في كل شيء، ولم يعد ممكنا إغلاقه. لم أشهد على رحيل الجدة سينااميس. لكنني متأكد أن النمل المنظم أكل عكازها بشهية. لم يكتشفوا موتها إلا بعد يومين من التوكؤ والانتظار. انكسر العكّاز، وسقطت أرضاً. اكتشفوا فنون العظمة. كانت متعكّزة على عصا قاسية، وهي ميتة.

هذه الشجرة التي نمت فجأة. لم تكن موجودة قبل موت سينااميس. في هذا المكان نمت شجرة الكولونيا؛ لتذكّر بسهى دجه براييل. تماماً مثل الفيلم الغامض الذي شاهده قبل أن يرجع للبيت، ويحضر ماكينة حريق الجسد. أعلم الكذبة. أعظم ما في الطب هو النار. ليس هو وحده مَن يملك الخطوط الزرق في جسمه. أنا ملكتها في مناسبة مختلفة. لقد دعاني مرة؛ لأحمل عنه هذا الميراث الثقيل. ضربني بالـ "مسعود". شقّ فخذي بضربة

واحدة. بقيت العلامة الزرقاء سنة كاملة. المسعود وصفة من أبي حواس قاهر القلوب الضعيفة. كان يجيء بقضيب ثور من مسلخ باب مصلى بعد كل زيارة يقوم بها من أجل الحريق، ويعلّقه بمسمار إلى الدالية الضخمة التي تتوسط الدار. يربطه من الأسفل بحجر صوّان ثقيل. ويدهنه كل يوم في الصبح والمساء بزيت الزيتون. بعد شهر، يحصل على سلاح مؤلم وخطير. سلاح صلب مثل الفولاذ . كنت أجلس مثل المجنون تحت الحجر، وأنفخ عليه، فقد تحدث معجزة، ويطير ويختفي. مَن يمكنه أن يجرب الـ "مسعود"، ولا يشقى في حياته. ضربة واحدة تكفي. لا يجب أن تتكرّر. لا يحتمل أي قلب شجاع أن يكون ثمة ضربة أخرى في المكان نفسه.

كان رشيد يحار في أمر أمّه. قضت حياتها مشغولة بطرش الدالية وشجرة التوت المعجزة بالكلس الأبيض. كانت تخاف من نخر النمل للشجرتين العاتيتين. ربما كانت محقّة في سلوكها، بعكس أبي الذي كان يتفنّن في أذيّتها. حتى أختي غيثاء كانت تنطّ على الحبل كثيراً. لم تكن تتركه. كانت تخشى على قدميها من النمال غير المرئية التي تقضم كل شيء في طريقها. ظلت تقفز في مكانها حتى صارت ترتفع أكثر من اللازم. خافت أمي عليها، فأخفت الحبل، وظلّت تتحيّن الفرصة التي لم تأت أبداً لإخفاء الـ "مسعود". ليس بسبب أذيّته وشروره. ربما حلّ عندي أبي مكان آلته التي توقّفت عن العمل منذ أن بدأ زياراته الغامضة للصحراء. اليوم ستعصف الأصوات المخبوءة في المرايا المأهولة بكل شيء سبق أن أخفيناه في أدراج الموتى، وصرنا نتسابق في البحث عنه إرضاء لنزعات ضمائر ميتة.

جهّز أبو رشيد المرآتين. واحدة أمامه. واحدة خلفه. جرّب البروفة الأخيرة قبل أن يلدع الخطوط الزرق بسيخ النار المجمّر. كان يحاول عبر المرآة رؤية ظهره من خلال انعكاس صورته في المرآة الخلفية عبر المرآة الأمامية، حتى يمكنه أن يتأمّل ما يبحث عنه في حريق الجسد الكبير. كنت أرى من فوق وأنا أحلّق في الأعالي أن وجهه يعكس شعوراً غريباً ممزوجاً بنشوة وألم غريبين، وهو ينظر لـ "المسعود" المعلّق في داخله، ويأبى أن يغادره.

اهتزت شجرة التوت

اهتزت الدالية

ترنّح رشيد عثمان، وهو يرى أباه يضع السيخ الأحمر على الخطوط

الزرق دون أن تند عنه نأمة، أو صرخة. أراد أن يصرخ من الألم نيابة عنه. أغمض عينيه. تمنى أن تنسدل جفونه على المحجرين الواسعين، ويصاب بالعمى. بقي على هذه الحالة أكثر من دقيقتين. مزتا كأنهما دهر.

عينان مغمضتان باتساع مزيَف. سيتغير المشهد في باحة الدار قليلاً. المرآتان في مكانهما. ثمة إضافة صغيرة. مروحة لتهوية الظهر والصدر المحروقين. أبو رشيد يبدو عليه الخبل، وهو يفغر فمه. سيدور المفتاح في القفل الخارجي للباب. ليس ثمة قادم يمكن أن يدلّ على هويته. شعر رشيد بدوار في رأسه، وتمسك بالغصن القريب. أحس بنزيف في عقله المسكون بأملاح المستقبل. ربما طيف الجدة الراحلة يزورنا الآن.
وقف في باحة الدار. نظر للأعلى. شاهدني فوق شجرة التوت. صرخ بأعلى صوته، وشق السماء حتى ظهر الثقب الأسود، وصار يبتلعني. جاء صوت الجدة خفيضاً: - ألم أقل لك - أيها الأحمق - أن سهى دجه براييل تنتظرك في الجهة الثانية من الجبل؟!

- الكآبة مصدر حيرتي وفشلي، وحتى أتحرّر منها يجب أن أكتشف المشي في الهواء حتى أصل إليها، يا جدتي.

الفصل الثالث عشر: قبّة الألم

استيقظ رشيد على صوت حركة في باحة الدار. رأى شبحاً يمر بجانب نافذته. نظر من النافذة الصغيرة. رأى أباه عارياً، يحاول استدراج قطة بقطعة لحم. كانت حركاته صعبة. الألم واضح في عينيه. يريد أن يصرخ عن سنوات شقاء، مزت وأفزعته حتى أخرسته تماماً. القطة تموء، وتراوغ. تريد قطعة اللحم وتخشى فخ الأب المخبول. ستموء طويلاً قبل أن تحظى بها. حدّث رشيد نفسه.

ظلّ أبو رشيد متمسكاً بفكرة استدراج القطة لسبب غير مفهوم. كان يلقي على نفسه موعظة، من زمن ماض جميل. ربما لم يصدق بكلمة واحدة. لكن تأثير الحريق على روحه كان قوياً ومشرعاً على أسئلة كثيرة، ستظل بلا أجوبة في القاع الذي يمضي إليه. كان يبحلق بالفراغ ويهذي: "- بقيت في الدشمة وحدي يومين كاملين، بلا طعام أو شراب. كل مَن كان فيها رمى سلاحه، وهرب. أنا بباروتي قمت بصدّ كتيبة كاملة. ثم انسحبت باتجاه الريحانية عندما فرغت رصاصاتي. أين أنت، يا أبا حواس؛ لترى كيف كانوا يفرون أمامي مثل الكلاب السلوقية.

يُسمع طرقٌ قوي على الباب الخارجي، فيرتاب رشيد بشيء لا يستطيع أن يحدد كنهه. لكن قلبه يحدّثه بشيء غامض، يدور حواليه. يواصل أبو رشيد محاولاته في استدراج القطة. يجذب حبلاً، ويلفّه على يده. لا ينتبه رشيد للحركة التي قام بها أبوه، فيما هو يهرع نحو الباب، وينادي بصوت حذر: "- مَن هناك؟ يجيء الصوت عميقاً من صدر مهدود لاهث: "- أنا . أيمكنك أن تفتح الباب؟ مَن أنت؟ لا يهمّ مَن أنا. مَن أنت، أيها الغريب؟ لا أحد يجيب من وراء الباب.

ينتظر رشيد دقيقة. ينظر إلى أبيه متفحصاً. يفتح الباب بحذر شديد، وينظر من شقّ ضيق، يوسعه بالتدريج، وهو ينتظر وقوع شيء وراءه. يخرج وينظر في الاتجاهين. ليس هناك أثر لمخلوق. يعود إلى الداخل متعجّباً. يرى أباه، وهو يعقد العزم على فعل شيء غريب. يصبّ بعض الحليب من إبريق في صحن صغير، ويقدّمه للقطة التي تتمسح بجذع

الدالية، وتقترب بحذر.

أبو رشيد يواصل التحديق بالقطة، ويحاكي نفسه: "- هذا صوت أبو حواس. أعرفه من بين ملايين الأصوات. كيف عرف عنواني، وأنا لم أخبره به؟ في الشتاء القادم سأستفر منه. في لحظة غير مفهومة، ولا يمكن تفسيرها تحت أي بند منطقي ينقض أبو رشيد على القطة المسكينة. تموء مستوحشة. تخمشه بأظافر ناعمة. يبدو عليها أنها قطة بيتية مدلّلة. لم يكن ممكناً أن يتنبه رشيد لذلك. لا يتدخّل. يهمّ بالدخول إلى غرفته، وهو يهزّ برأسه متأسياً.

زاد أبو رشيد في انفراج فمه. صارت ضحكته المخبولة ترسم معالم البيت. نزلت الذكريات مع أوراق التوت المعندة. اهترأت، أو تنازلت طائعة عن عرشها. لن يمكن تسديد فواتير الظلم إلا من نافذة واحدة. أدرك رشيد بحدسه المدرّب أن بداية جديدة قادمة على الطريق. لن يعود الأب إلى سابق عهده. عرف في سره أنه سيوقع الأذى بالقطة. ليست ضحكته إلا إشارة على نشيج طويل قادم. الأفضل أن نغلق النوافذ كلها في وجه العاصفة، ونمضي في الاتجاهات التي تحدّدها الريح. فهم الإشارة. سيغادر وحده أولاً، ويعود في وقت ثان؛ ليقرأ مصير الأم والأخت. أما الأب؛ فلن يجده على قيد الحياة. هذا أمر مؤكّد. حدّث نفسه، وهو يخرج من الباب إلى الفراغ.

وقف عند العتبة. كان أبوه يجلس على كرسيه، ويعلّق القطة من ذيلها بالحبل بعد أن رفعه فوق أعلى غصن في الدالية. بدأ عدّاد الجنون يفترس الدقائق الثقيلة التي تمرّ على القطة وعلى ساكني المنزل. يدّ تشدّ الحبل، فترتفع القطة إلى الأعلى. يدّ ترخي الحبل، فتقترب القطة من صحن الحليب، وعندما تدلق لسانها الوردي الصغير؛ لتلعق شيئاً من هذا السائل الأبيض، وقد بدأت تشعر بالجوع، تقوم ذات اليد بشدّ الحبل.

يضحك أبو رشيد. ضحكة واحدة ستودي بحياته. لم يضحك من قبل. شاء الخبل أن يدلّه عليها. يتلو الضحكة صمت مفاجئ. تجيء أم رشيد، وهي تهزّ رأسها. تهزّه وكأنه يدور دورة كاملة حول الغابات التي لم ترها في حياتها، والتلال التي لم تطأها قطّ. تذرف دمعة في الاتجاه الخطأ. تفك القطة من ذيلها. ترتخي يد الأب. يموت.

لا يلتفت رشيد للوراء. ليس أمامه الوقت؛ ليفعل ذلك. يعرف أن الخطوط الزرق ترتفع إلى مستوى الفراغ حين نحدّق به من فوق. لم يكن

أمامه سوى الطريق الموصودة؛ ليعبر منها باتجاه النجاة. كانت طريقاً محفوفة بالأشواك التي تتدحرج في القلوب الميتة. لم تكن طريقاً مرئية. ليست أشواك البلان التي تتدحرج في الجرود القاتلة من توصد دربه. لم يكن الأمر كذلك. شاعت تلك الروائح التي لا يمكن تشمّمها إلا من ثقوب الأقفال والرتاجات الشهوانية الباحثة عن لذّة الإغلاق.

يعرف رشيد أن العالم القديم الذي عبره مراراً يكاد ينطفئ. يودّع دروباً لم تكن موصودة إلى هذا الحد إلا لأنه أراد أن تكون كذلك. سالت الشهوات من معاطف لم تكن ملكاً له في أي ساعة كان يصحو فيها، وفي أي ساعة كان ينام. مَن يستطيع أن يبرهن أن الثياب التي تلفع بها سنتين ونصف كانت ملكاً له، أو كانت تكتفي بتقريض جسمه، مثل مريض الوسواس القهري، حين يتلهى بتقريض أظافره في سن الفتوة، بعد أن كفّت أمه عن ضربه على قفا يده؛ لأنه لا يجيد القعود على القصرية.

يمضي، ولا يلتفت للوراء. لا يجب أن يلتفت. يعرف أن مصيره يقع على بعد عشرة آلاف ياردة من هنا. لن يلتفت. إن فعل ذلك، فسيفسد مخطط البقاء في الهواء النظيف بعد أن يتحلّل مثل بيضة في فم أفعى عملاقة. سيخرج الناس جميعاً بعد انفجار الصاروخ الأول والأخير. طائرة المبغ تسجّل للحظة نادرة في حياة رشيد عثمان، وفي حياة الجماعات الزرق التي تتكوّم منذ الصباح عند جامع عبد القادر الحسيني. قالت سينياميس إن هذا اليوم كتب عنه الأولون. ضحكت كعادتها. كانت تعرف أن بلوغ الهوة الفاصلة بين الخيط الأسود والخيط الأبيض تتطلّب هذا الهدم في الأجساد المتقاتلة. لن يبقى أحد في الديار إلا قلة قليلة من الذاهبين إلى الفراغ. تلك الحفرة عديمة اللون والجاذبية التي تبتلع كل شيء.

خلق رشيد عثمان منعرجات في مشيه. تعلّم من العميد النمراوي أن يترك وراءه الأثر المعوج الذي لا يمكن تعقّبه بسهولة. لكن الرتبة العسكرية سقطت، وتلاشى تأثيرها المؤقّت. ليس لها حضور في هذه الوصفة الجديدة التي تجتاح كل شيء. يخرج من بوابة، ويدخل في أخرى. الطريق الموصل بين البوابتين ليس فيه العشب الذي يؤخّر هروب الحيطان، ويكتم الآهات حين تتعالى وراءها. طريق ضبابية يخوضها المرء مرغماً لإعادة كتابة سيرته. ليس هناك مقاهٍ، تحتضنه، أو دور للبغي يمكن تسقط أخبار العاهرات فيها للكتابة عنها بالأحبار الجديدة المختلفة . سيمر مختنقاً بدخان الصاروخ الذي أهان أجساد المتقاتلين. لن ينجو، كما هو

مكتوب في دعاء الجدة سيناميس. النوم بين الأقمار للتقليل من شأن الدعاء. ربما من أجل سهى دجه براييل. يمكن للشركس أن يجيئوا من الريحانية أيضاً، ومن كفر كما وقيسارية. ليست البوابة التي تفضي إلى بوابة أخرى إلا القمر المنير الذي تخفيه في رنات خلخالها حين تعبر من بينها. أقول لك - يا جدتي - إنني أنوي أن أنجو حتى أصل إليها. المشي في الهواء قد يعفي رقبتي من سكّين أبي حواس ومعلّمه التاجر الباكستاني نوزت خان. أنت - الآن - في سماء موصودة، وترين من فوق ما لا نراه نحن البشر العاديون. من أعلى كوكب – يا جدتي - تشهدين كم يترصّدني الوحوش، ويتسابقون لوضع نهاية غير عادلة للحكاية التي قصصتها عليكم عند نهاية البوابتين. هل سأنجو، يا جدتي؟! لا يجب أن أسأل. البوح لا يقترن بالأسئلة التي تفسده. لا يجب أن أقترب من قبّة الألم.

كان الرقيب المخلوع رشيد عثمان يعرف أنه لن ينجو. فكرة المشي في الهواء للعبور المؤلم نحو سهى دجه براييل كانت فكرة مسلّية ومعذّبة في آن. المشي في الهواء يعادل القبّة الزجاجية التي كان يحلم بها الإمبراطور المغولي كوبلاي خان. ليس هناك تفكير رومانطيقي في طريقة قتلي. مع هذا، أعدك ألا أتألم، يا جدتي الشركسية. العرق الشركسي يقي ويحمي.

يؤلمني شيء واحد فقط، يا جدتي سيناميس، وأرجو ألا تخبري سهى دجه براييل به. لن يجدوا رأسي بعد أن يفصلوه عن جسدي في الطقوس الزرقاء التي يقيمونها الآن بين البوابتين. مَن يمسك بالخط الأزرق؛ ليترك العلامة المسجلة. الباركود الأكثر إثارة للجدل في العالم. أعرف أن وصف العملية في كتاب مع شروحات بالصور قد يشبع رغبات وغرائز دنيئة عند الكثيرين ممن يتلظون في العتمة دون أن تظهر المفاتيح بأيديهم حين لا يريدون لها أن تظهر. لكن؛ لا يجب أن يكون هناك أثر. إن كان رأسي سيفلت من جسمي، ويضيع في نهر الموت مع كلاب الجحيم، فالأفضل ألا يكون هناك أثر مكتوب. لا يجب أن نعرف شيئاً عن سكاكين نوزت خان ومصنع وزير آباد وأفلام العنف التي نغرق فيها، ونحن نأكل البوب كورن مع مَن نحبّ. أقول لك - يا جدتي - إنني أخاف من العتمة. إنها تلغي الفارق بين الخط الأزرق والجسم المنتهك بدناءة حين تستولي إضاءة الغرائز على البوابتين اللتين تُمنحان لنا حين نجيء إلى هذه الدنيا، وحين نغادرها. أقل من طرفة وأوسع من جفن منسدل هي الحياة التي تنغرز بين أقدامنا. أقول لك شيئاً عن سهى دجه براييل. ليست القبّة الزجاجية إلا

قصراً منيفاً، يليق بها حين أعود مرة أخرى من العالم الآخر، ويدي تتحسس موسيقا مختلفة بين البوابتين الواسعتين يمكن الإحساس بها عن طريق مكوّنات شعورية، لم يفكر بها الإنسان من قبل. لم يرتق حتى يمكنه الوصول إليها. أقول لك، وأنا أمضي إلى حتفي طائعاً إن ضحكة سهى دجه براييل هي الموسيقا الجديدة لهذا العالم.

الفصل الرابع عشر: الجنة ويوم واحد

لن يتوقّف أحد أمام الصوت الذي يتردّد صداه في الجرود. كانت أغنية من زمن غابر، لا تستوقفها الريح. لم يسبق لهذا الصوت أن جاء من هذا العمق، أو من هذه الجهة الساكنة وراء البوابتين. يذكر مَن يسمعها أن حياة كاملة لشخص مرّ من جنباتها غير متطفّل، ومعه ورقة، أحضرها مجند. لم يتوقّف أمامها أحد. كانت ورقة عن أغنية، يمكن بلوغها بعد الموت. أغنية لا يمكن بلوغها إلا بالموت. لم ينس الرقيب رشيد عثمان أن كلمات الرسالة ستضعه أمام مفترق طرق، يتقرر فيه وجوده.

كل الكلاب السلوقية التي طاردته لم تُنسه أن مصيره كان يرفرف أمامه عينيه. لم يكن بعيداً عن الطريقين الموصولين ببعضهما. يمضي رشيد عثمان حانقاً إلى حتفه؛ لأنه لم يعاين فكرة تبديل الأغنية بكلمات أقل ضراوة. كان النشيد يسير على عماء، لم يكن ممكناً التساهل فيه، يا سهى دجه براييل. أنت لم تنتبهي للظلام الذي حلّ على الرقيب الهارب في آخر شتاء، عصف به على الأرض. كان يمكنه تبديل الكلمات التي صار يكتبها ويخفيها بين عجلات الخريف والأوراق التي لا تستسلم بسهولة حين لا يكون هناك نداء للريح التي تتقاتل ألسنتها من حوله. فضّل أن يخفي ما يقوله في أوراق، لا يمكن تطييرها إلا بالنوم تحتها والنفخ عليها. أراد أن يجرّب طريقة المشي في الهواء حتى يصل إليك من دون أن يكون هناك أشجار، تنام في الفراغ. لم يكن ممكناً إتمام فرضية بهذا الغموض. كتب الجنة ويوم واحد في ورقة طيرها من نافذته في الثكنة، وأعادها المجنّد في اليوم التالي له في غرفته دون إبطاء: من خيط بني داكن على أصابعك تقوم قيامة. أذكر كيف تكون الرحلة بطيئة وكاوية. البطء في رحلة مستفزة نحو الشوكولا السائخة كان متعمداً، ويكوي أضلاعي من باب قياس الزمن في مكان، يقال له الجنة، وليس مستبعداً أنني أنا مَن كان يتلذّذ؛ لأنقل الشعور كهربياً إليك. أملك مشاعر جديدة؛ لأقول شيئاً عن بركة داكنة، أستعدّ للغوص فيها. أصف حالتي في النزول للوادي، أو في الصعود إلى تلة بالغرق الموجه في سهل بعيد. نشوة ثقيلة تبيت في رأسي، وتبادله بغواية أخرى، لا تقل في بهجتها عن النوم في بركة ساخنة

مثل أوراق الكاكاو السوداء التي لا تعمر. السباحة في الشوكولا متعة. تعيد السابح إلى مجد الغريزة الأولى، كما لو كان هناك جسد، يتحلّل في جسد آخر؛ ليخفي بياضاً مذهلاً، لم يكونا قادرين على إذابته فوق الأريكة، وهما يتناوشان جسديهما، ويتشقّقان من الشهوة. كانت الشوكولاتة في مقام آخر فوق السرّة تفور من ينبوع، لا ينتهي. صارت تصدر في سيلانها أصوات حراشف ناعمة وخفيضة، وتنتهي إلى مذاق حميم، يلسع اللسان في ذروة متصالبة تحت النبع بقليل. لم توفّر وسيلة لدغدغته إلا وقامت بها. ما إن ينفخ على إصبعها حتى تلعق أصابعه المغطاة بالشوكولاتة واحداً واحداً، وتبدأ بإطلاق أسماء كائنات غريبة عليها. كل اسم يعني شيئاً جديداً في عالم اللهاث الغامض، كأنها تنزل بأحاسيسها إلى تصوّرات جديدة عن الغرائز المستوقظة التي ينشدانها معاً في نوم البركة الداكنة. لم توفّر تعريف الماء حين يفور بين أصابعها من ينبوع الجسد المتخفّي على الأريكة، ولا يظهر إلا لها. كانت تشهق بسعادة حين يسيل ويلمع. كان الماء بنظرها طيباً مثل الكافور. جزبت أن تترك منه شيئاً على زجاج شفاف، وتعيد تجميعه بلسانها حين يحاول الانزلاق من ممرات سرية، لا أحد يدركها فوق الطبيعة. أرادت أن تسقيه باسم خاص بها. تشهّت أن تسمّي الكائنات المليونية الفائرة التي تنزل معه مستسلمة بأسماء جديدة، وتدلّلها حين تتعزف عليها بلسانها الوردي الرقيق. كان يبتسم لها، ويقطر من إصبعه شوكولا داكنة فوق الحلمتين.

كوّر الورقة في يده، وهو يصل عند الحاجز الذي يفصل بين البوابتين. حاول أن يعيد رسم الجدار الذي يمكن أن يحميه ويجعله يحيد عن الدرب المفضية إلى قراءة قاصرة للّون الأزرق الذي يفترض وجوده هنا بعد إنارة الجسد به، وتعنيفه عن طريق رسم الخطوط التي تودي إلى حريق كبير، سيشبّ في الثكنات التي نحتمي بها من الآن فصاعداً، ولن يكتفي بثكنة واحدة، كما في كل مرة. كان الرقيب رشيد عثمان يدرك من خبرة سابقة أن ما يمتلك من أدوات وذكاء وقدرة على الصيد وقراءة العبر لن يجدي في محاولة العبور بين البوابتين الفاصلتين. كوّر الورقة. وضعها في جيبه أولاً. رأى أن ذلك قد يزيد في تعقيد الحالة التي سيمرّ منها. أعاد تكوير الورقة حتى تصبح أصغر حجماً، ثم حشرها تحت لسانه. بدأت الغدة اللعابية تفعل فعلها. كان يجب أن تقوم بما يجب أن تقوم به. رأى فيما لا يراه النائمون أن البقاء واقفاً بين خيطين يمكن أن يغيّر من الاستكانة التي يتصنّعها، وهو واقف بانتظار العبور. أخذ يحدّق في شموس عالقة في مجرات بعيدة. كان الوهن يتسلّل إلى قلبه، ويطحن عظام القفص الصدري.

لم يعتد أن يبلع ريقه بهذا الانكسار، لكنه كان يجب أن يقوم بمثل هذا الفعل. يجب أن تختفي الورقة.

أمسك نمر البنغال برقبته. وضع نصل السكّين الحاد عند التجويف الذي تتسلّقه النمال حتى تصعد للأعلى، وتغيّر من قانون الجاذبية في الرائحة التي ستتصاعد منه بعد قليل. لم يصرخ رشيد عثمان. ربما صرخ، ولم يسمعه أحد. كانت طائرة الميغ تعبر باتجاه مخالف لدوران السكّين. غطت على صرخته، وحرّكت الريح باتجاه الجرود:

شامة على رقبة الطائر تصرخ من الألم

الطائر يجرّح الأوراق واحدة واحدة

يتمسك بالماء، والجرح أجمل ما فيه

٢٣ نوفمبر ٢٠١٥

غابات السويد